مهدي الفتلاوي

التوبة والتائبون

دراسة تربوية إسلامية لمفهوم التوبة
على ضوء القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت «ع»

الطبعة الأولى




[redacted]

Fatlawi

مهدي الفتلاوي

التوبة والتائبون

دراسة تربوية إسلامية لمفهوم التوبة
على ضوء القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت «ع»

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

((قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم))

((ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين))

ـ قرآن كريم ـ

((ليس شيء أحب الى الله تعالى من مؤمن تائب ومؤمنة تائبة))

ـ حديث شريف ـ

* اسم الكتاب : التوبة والتائبون .
* المؤلف : مهدي الفتلاوي .
* تاريخ الطبع : ١ / رجب / ١٤٠٤ هـ .
* الناشر : مكتبة الامام الحسن (ع) ـ پاساژ قدس .
* الطبعة : الاولى / ٣٠٠٠ نسخة .
* تايپ ايمان / قم ـ پاساژ قدس .

[redacted]



الى الغارقين في بحر الآثام ، الذين حجب ركام المعاصي قلوبهم عن نور الايمان والهدى ، فيأسوا من اصلاح أنفسهم ، أهدي هذا الكتاب ، لعلهم يجدون فيه ما يعينهم على التخلص من ظلمة الذنوب وكابوس القنوط ، والتوجه ـ بنيات مخلصة ـ الى ((التوبة)) باب رضوان الله تعالى ، ومدخل ساحة مغفرته .

والى الذين استفاقت ضمائرهم ـ بعد أن تدنست في وحل الجريمة ـ فبدؤا يفكرون من جديد بالعودة الى ربهم الغفور الرحيم .... الى هؤلاء المثقلين بكبائر الآثام وعظائم الذنوب ، الماقتين لأنفسهم الهاربين من جرائمهم ومعاصيهم ، اقدم رسالة ((التوبة والتائبين)) ، لعلها تهديهم نحو طريق التوبة المخلصة النصوحة .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يتصور بعض الناس ، ان الهداية ـ بعد الضلال ـ الى طريق الاستقامة والايمان الصحيح ، أمر لا يملك الانسان المذنب قراره بيده وانما هو توفيق الهي محض ... فالله سبحانه يهدي ويضل من يشاء من عباده ... !! والناس ـ حسب هذا الفهم ـ مقهورون من قبل خالقهم على الهداية ، مجبورون على الضلال ، وليس لهم من الأمر شيء ... !!

وهذا الفهم ليس صحيحا ، لأنه يتعارض مع أوضح مفاهيم العقيدة الاسلامية ، فالاعتقاد الاسلامي الصحيح يؤكد ان عملية الامداد الالهي لانقاذ المذنبين من ظلمات المعاصي ، وصدهم عن غيهم وفسادهم لا تتم من قبل الله ـ تعالى ـ وحده ، بالرغم من ايماننا بأنه على كل شيء قدير ... بل هي عملية مشتركة بين العبد وخالقه ، فليس فيها جبر ولا تفويض للانسان ، وعلى هذا فلا بد أن يبدأ المذنبون من جانبهم الخطوات الاولى لتغيير واقعهم المنحرف

واصلاح ما بأنفسهم من فساد وتطهيرها من ظلمه المعاصى ، وبعد ذلك يأتيهم المدد الالهي ليساعدهم على التخلص من أضرار الذنوب ، وينقذهم من تبعات ماضيهم الاسود ، كما أوضح هذا المفهوم العقائدي القرآن الكريم ، واعتبره قانونا ربانيا ثابتا في معركة الجهاد الأكبر ((جهاد النفس)) ، وفي معركة الجهاد الأصغر ((جهاد الاعداء في ساحة القتال)) . ففي كلتا المعركتين يأتي المدد الغيبي لنصرة الانسان المحتاج ، بعد أن ينزل مخلصا في معركة جهاده ضدّ عدوه .

قال الله سبحانه :

((ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))"١" .

وقال سبحانه :

((ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم))"٢" .

ومن هذا المنطلق اعتبر الاسلام ((الاقدام على التوبة)) من أهم الخطوات التربوية التغييرية التي يجب أن يخطوها المجتمع المذنب والأفراد المذنبون لمواجهة واصلاح نفوسهم الأمارة بالسوء من أجل أن يغيروا ما بها من فساد ، ويعودوا بها من جديد الى حياة الطهر والاستقامة ، حينما تتلبس بالمعاصي وتتزلق في أودية الانحراف وتغرق في وحل الجريمة .

---

(١) الرعد : ١١ .
(٢) محمد : ٧ .

وبالتوبة المخلصة يبدأ الضالون فكريا ، والمنحرفون سلوكيا، حياة جديدة عامرة بالايمان والهدى ، زاخرة بالاعمال الصالحة ، متصفة بالاستقامة والالتزام الدينى الصحيح ٠

ومن هنا ندرك جيدا ماللتوبة الصحيحة من أثر عظيم على سلوك المذنبين النادمين على ماسلف من أفعالهم المنحرفة ، فالتوبة في حياة هؤلاء ماهي الا وقفة تأمل هادفة وقرار نفسى حاسم ، وانتفاضة وجدانية عنيفة ضد جميع أنواع الرذيلة ودواعي الانحطاط في النفس ، وهي بعد ذلك تعتبر رفضا نفسيا وسلوكيا صارما لكل عوامل الشر ، وأسباب الفساد في الحياة ٠

○ ○ ○

وبالرغم من الأهمية الكبيرة التي يحتلها مفهوم التوبة من بين مفاهيم الاسلام التربوية ، فانها ــ مع ذلك ــ لم تطرح على صعيد ثقافي عام باسلوب جديد وبطريقة تربوية وعلمية لها فاعليتها التغييرية في ارجاع المذنبين واعادة العصاة الغاوين الى خط الاسلام الملتزم ٠

فالمذنبون الراغبون في العودة الى الله ــ تعالى ــ حينما يريدون التعرف على طريق الرجوع الى حياة الايمان والتقوى ، ليسلكوه عن معرفة وبصيرة ، فانهم لا يجدون أمامهم ــ من البحوث الاخلاقية ــ ماينير لهم الدرب نحو هذا الطريق ، غير ماكتبته مدارس الاخلاق التقليدية ٠

ومن الملفت للنظر أن هذه المدارس قد تأثرت ـ الى حد كبير ـ بالنزعة الصوفية الغريبة عن روح الاسلام ، والمجافية لأهداف التربية الروحية للدين القيّم ، وبالاضافة الى ذلك فانها تفقد المنهج العلمي في البحث ... فحينما نقرأ ـ مثلا ـ في كتاب المحجة البيضاء ، أو كتاب جامع السعادات ، باعتبارهما نموذجين للفكر الأخلاقي المطروح من قبل مدارس الاخلاق القديمة ... نعم حينما نقرأ في هذين الكتابين موضوع التوبة ـ مثلا ـ نجده مستعرضا باسلوب وعظي تسيطر عليه النزعة الصوفية"١" في البحث ، كما نلاحظه متناولا بطريقة غير موضوعية ، مما يجعل الباحث يخرج في كثير من الأحيان عن المحور الأساسي للفكرة ، غافلا عن طرح أكثر الأبحاث المهمة في الموضوع"٢" كالبحث ـ مثلا ـ عن الأحكام الفقهية المتعلقة بالتوبة والتي تحدد الموقف العملي الشرعي للتائبين حسب طبيعة الذنب الذي ارتكبوه ، ووفقا للظروف التي أعلنوا فيها التوبة .

أو كالبحث عن الشروط التي يصبح الانسان بموجبها مذنبا وتجب عليه التوبة شرعا ، فليس كلما أذنب الانسان يجب أن يتوب ،

---

(١) كتاب جامع السعادات فى تصورى خال من النزعه الصوفيه .

(٢) كان من المفروض أن تكون دراستنا النقدية لهذين الكتابين مشفوعة بالشواهد من نفس هذين الكتابين ، ولكننا أعرضنا عن ذلك لسببين (الأول) لبداهة هذه الملاحظات والانتقادات لدى أكثر القراء المطّلعين على الكتابين المذكورين ، (الثانى) ان الدراسة =

فالمضطر والمجبور على المعصية لاتجب عليه التوبة ٠٠٠ ولاكل الذنوب بحاجة الى توبة ، كما يتبادر الى التصور من أول وهلة ، وكما توحي بذلك هذه الكتب الاخلاقيه ، بل قيل ان مجتنب الكبائر اذا ارتكب الصغيره من غير عناد ولا اصرار على الباطل ، لاتجب عليه التوبة ، لأن اجتناب الكبائر مكفر للذنوب الصغائر ، بنص القرآن الذي قال :

((ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما))"١"

بلى ، قد تكون التوبة مستحبة في الحالات المذكورة ، وليست واجبة ، وحينئذ تصبح توبة المضطر أو المجبور ــ وماشابه ــ مظهرا من مظاهر التقوى التي ينبغي أن يتصف بها المؤمنون المخلصون ٠

وأيضا أهملت هذه الكتب البحث عن شروط قبول التوبة فليس كل توبة مقبولة في الاسلام ، بل يجب أن تتصف التوبة بصفات معينة وشروط ذاتية وموضوعية خاصة تؤهلها للقبول وتكون بدونها غير كاملة ٠

وكذلك لاتجد في هذه الكتب أثرا للكلام حول موقف القضاء الاسلامي من توبة المذنبين أو المجرمين ، قبل القاء القبض عليهم ، أو عندما يعلنوا توبتهم أمامه بعد أن تدينهم المحكمة الاسلامية بأحد

= النقدية التطبيقية المشفوعة بالشواهد والأرقام تستوعب صفحات عديدة ، الأمر الذي يجعل الكتاب كبيرا ومملا لدى القراء ٠

(١) النساء : ٣١ ٠

أصول اثبات الجريمة ٠٠٠ كما لاتجد أثرا للبحث عن المعصية الجماعية ، والتوبة الجماعية ، والى غير ذلك من الموضوعات المهمة الأخرى التى أغفلتها المدرسة الأخلاقية القديمة في موضوع التوبة ٠٠٠

هذا مع غض النظر عن الاسلوب البياني الجامد ولغة العرض المعقدة التي درجت عليها طريقة الدراسة في هذه الكتب ، الأمر الذي يجعلها ممجوجة ومرفوضة لدى أكثر المثقفين والمطالعين من أبناء هذا العصر ٠

ومع هذا ، فلا ينبغى لنا انكار الدور التاريخى العظيم لهذه الكتب في حمل أعباء رسالة الأخلاق الاسلامية ، ونشر مفاهيمها وقيمها في الحياة ، كما لاننسى تأثيرها التربوي والاصلاحي الكبير في اصلاح المجتمعات ، وتربية الأجيال المسلمة وخاصة من طلاب الدراسات الدينية في الحوزات العلمية ، فبالرغم من كل ماذكر من مؤاخذات علمية وفنية عليها ، فانها لازالت موضع استفادة ومصدر عطاء لأكثر طلاب الأخلاق ونشاد الفضيلة ، مما يدل على أهمية ماتحتويه هذه الكتب من فكر أخلاقي معطاء ٠

وعلى كل ٠٠٠ لقد باتت الكتابة بلغة عصرية واسلوب علمي جديد أمرا ضروريا ليس من أجل طرح موضوع التوبة فحسب ، بل وانما هو أمر تتطلبه ضرورات العصر ، فينبغى أن تعاد ــ على ضوئه ــ صياغة جميع الكتب الاخلاقية القديمة ، لنتمكن بذلك من القضاء على حالة الجفاء بين الكتاب الأخلاقي وعامة القراء ٠

وانطلاقا من هذا الشعور ، جاء التفكير في الكتابة حول ((التوبة)) ، باعتبارها من أهم الموضوعات التربوية التي يحتاجها المجتمع المسلم باستمرار ، وخاصة وهو ـ اليوم ـ يعيش مرحلة الانتماء الهادف والصحيح للاسلام ، حيث يرى دينه يمر في منعطف تاريخي عظيم، متجسدا في عودة الاسلام الى قيادة الحياة من جديد ... فالانتماء الحقيقي للاسلام أصبح اليوم مطلبا رئيسيا لدى أكثر أبناء الأمة ، وهم ينظرون الى رسالتهم الالهية تشق دروب النصر في كل مكان من العالم متحدية قوى الشرق والغرب ... كل ذلك بفضل اليقظة الاسلامية العالمية التي أوجدتها الثورة الاسلامية المباركة في ايران الاسلام .

مَنهجُ البحث

وموضوع التوبة على صغره ، فانه يحتوي أفكارا وتوجيهات أخلاقية قيّمة ومهمة جدا على الصعيد التربوي ، كما يشتمل على قضايا قانونية تحتل ركنا أساسيا في مواد القضاء الاسلامي ، ولهذا حاولنا دراسة الموضوع في قسمين رئيسيين :ـ

القسم الأول : يتناول اطروحة التوبة بشكل عام من خلال الافكار التربوية والمفاهيم الاخلاقية والأحكام الشرعية التي أثارها الاسلام حول هذا الموضوع بالذات .

القسم الثاني : خصص لدراسة أحكام المجرمين والمذنبين التائبين وموقف المحكمة الاسلامية منهم ، وذلك في بحث فقهي تربوي نسترشد من خلاله بالآراء الاجتهادية المختلفة والمطروحة من قبل فقهائنا في موضوع التوبة أمام القضاء الاسلامي ، وسيكون المستفيد الأول من هذا القسم هم قضاة المحاكم الاسلامية وطلاب الدراسات الفقهية والقانونية .

والكتاب الذي بين أيدينا يجسد طموحات القسم الأول من هذه الدراسة المترابطة ، وقد تميز في طريقة دراسته للموضوع بالخصائص التالية :

١- حاول سد الثغرات التربوية والفقهية التي أغفلها الكتّاب السابقون الذين كتبوا في موضوع ((التوبة)) من قبل ، وهي كثيرة جدا "١" الى درجة تجعل القارئ الموضوعي يقطع بأن الموضوع لم يكتب فيه من قبل بهذا المستوى في المضمون والطريقة .

٢- استهدف الكتاب استعراض موضوع ((التوبة)) بكل تصوراته الرئيسية بطريقة تربوية ومنهجية مبسطة وبلغة بيانية واضحة وسلسة يستفيد منها عامة القراء على مختلف مستوياتهم الثقافية .

ولما كان هدف هذه الدراسة هو تسليط الأضواء على مفاهيم الاسلام حول مسألة ((الخطيئة والتوبة)) واثارة الأفكار التربوية التي

---

(١) كما ألمحنا اليها في مطلع هذه المقدمة .

طرحها الدين في طريق التائبين ، فقد تجنبنا الخوض من خلالها في المناقشات النظرية التي تثار عادة في مثل هذه الموضوعات الأخلاقية مكتفين بالدخول في الضروري منها والذي لا يتعارض مع الأهداف التربوية للموضوع ٠

٣ ـ حاول الكتاب عرض الفكرة الاسلامية مصحوبة بالنص الوارد بخصوصها متجنبا قدر الامكان الطرح الفكري المجرد الذى غالبا مايعتمد على تأملات الكاتب وفهمه الخاص منفصلا عن المصدر الأساسي للفكرة ، وانما اعتمدت هذه الطريقة من الدراسة انطلاقا من ايماني بأن النص الاسلامي سواء كان قرآنيا أو واردا عن أهل البيت (ع) فهو غالبا مايكون أكثر وضوحا من كلام الفقهاء وعلماء الاخلاق ٠

وبالاضافة الى ذلك ، فان من أبرز الأهداف التربوية لهذه الطريقة من الدراسة هو ربط المسلمين مباشرة بالمصدر الأساسي لرسالتهم وعقيدتهم ، وكذلك ربطهم مباشرة بقيادتهم المعصومة من خلال النصوص التي تروى عنها ٠ ومن المؤكد ان الافكار الاسلامية تختلف في قدسيتها وتأثيراتها التربوية لدى القراء ، اختلافا كبيرا حينما تؤخذ من نصّ قرآني أو حديث وارد عن أهل البيت (ع) ، أو حينما تؤخذ من كاتب اسلامي صاغها باسلوبه الخاص ،ووضع الستار على مصدرها الحقيقي المعصوم ٠

وقد واجهت هذه الدراسة عقبة رئيسة في الطريق ، تلك هي مشكلة تحديد الموقف العملي الشرعي للتائبين . وكان ذلك أمرا طبيعيا باعتبار ان الاسلام كان مقصيا عن قيادة الحياة ... ولهذا لا نجد لفقهائنا رضوان الله عليهم آراء واضحة ومحددة في كثير من القضايا التي تصب في ساحة الحياة السياسية والادارية ... والتربوية التي يعتبر موضوعنا هذا جزءا منها ... وقد حاولت اجتياز هذه العقبة باسلوبين :

الأول : الاقتصار على ذكر الحكم الشرعي الذي يثيره البحث في الطريق فقط ، معتمدا في ذلك ــ بالدرجة الأولى ــ على فتاوى زعيم الأمة الاسلامية الامام الخميني التي ذكرها لمقلديه ، موزعة في رسالته الفقهية ((**تحرير الوسيلة**)) .

الثاني : أما المواقف التي يراد لها حكم شرعي ، وقد برزت أمامنا في الطريق ومع ذلك لم نجد بحثا فقهيا مخصصا لها .. فقد جهدنا على ان نوفر لها الصورة الاسلامية من خلال معطيات نصوصها الموثوقة مع الاسترشاد ــ في أغلب الأحيان ــ بآراء الفقهاء التي لها علاقة من قريب بالموقف ، كما تجسدت هذه العملية في مواضيع متعددة من الكتاب كالبحث عن الشروط التي يصبح الانسان بموجبها مذنبا شرعا أو كالبحث عن شروط قبول التوبة ، أو كالبحث عن وجوب التظاهر بالتوبة الاجتماعية في المحيط الاجتماعي الذي مورست فيه

المعصية الاجتماعية ٠

ويتلخص منهج البحث في فصول أربعة :

الفصل الاول : حول ((الذنوب وآثارها وأنواعها وأسبابها وطرق علاجها)) ٠

الفصل الثاني : يتناول الحديث حول ((التوبة في التشريع الاسلامي)) ٠

الفصل الثالث : عرض تربوي لمفهوم التوبة بعنوان ((التوبة منهج تربوي ربانيّ)) ٠

الفصل الرابع : بحث خاص حول ((المعصية الجماعية والتوبة الجماعية))وَهُوَ مِنْ اهم الموضوعات الاجتماعية التربوية التي تطرَقَ لها هذا الكتاب ٠

وعلى كلّ فاننا لا ندّعي العصمة من الخطأ فى كل ماأوردناه فى هذه المحاولة ولا سيما ان ظرف الاقدام عليها كان قد اتفق مع اضطراب الخواطر وكثرة المشاغل وقصر اليد عن المصادر ٠٠٠ ولهذا نأمل أن يكون لتنبيهات العلماء الأعلام والقرّاء الكرام حول مواقع الغفلة والخطأ التي لا يسلم منها الّا من عصم ، أثر كبير في تكامل هذه المحاولة ونجاحها في تجربتها الثانية ٠

اللهمّ أستغفرك وأتوب اليك من خطأي وزللي ومن كل ذنب أذنبته ، ومن كل جرم أجرمته ، اللهمّ وأسئلك أن تقربني من رحمتك ، وتباعد بيني وبين معصيتك ، وتعاملني بلطفك وعنايتك ،وتجعل ما أثبته في هذه الأوراق حجة لي يوم ألقاك ، وذريعة في الوصول الى تحصيل رضاك ، انك ذو الفضل القديم والمنّ العظيم ٠

اللهمّ واجعلني متقويا على ضعفي وعدوي بنصرك وقدرتك ٠٠٠و ((أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه ،وأصلح ليّ في ذريتي أني تبث اليك ، واني من المسلمين)) "١"

والحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين ٠

مهدي الفتلاوي
مدينه قم المشرفة
حرر ليلة ٢٣/ شهر رمضان المبارك / ١٤٠٣ هـ

---

(١) الاحقاف / ١٥

الفصل الاول

الذنوب، آثارها
وانواعها واسبابها
وطرق علاجها

ماهي الذنوب

الذنوب مفردها ذنب ، والذنب لغة يعنى : الجناية والجرم، تقول : أذنب العبد ، واستغفر ـ الله تعالى ـ من الذنوب، وتذنب على فلان ، مثل تجنى وتجرم "١" .

والذنوب في الشرع هي : عبارة عن مخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه ، واتباع الشهوات والرغبات الشيطانية والنوازع الشريرة في النفس الانسانية ، تلك التي تدعو الى ترك الواجبات ، وارتكاب المحرمات .

وتعتبر الذنوب من وجهة نظر دينية قمة الرذائل ومصدر الشر والفساد في حياة الفرد والأمة ، ولذلك حرّمها الله ـ تعالى ـ على الانسان في كل الأديان ، ونهاه عن مقاربتها ، واعتبر الاقدام عليها مع سبق الاصرار ، سببا لأكثر المصائب والنكبات التي يصاب بها الفرد والمجتمع ، سواء كان على الصعيد الاقتصادي ، أو السياسي ، أو الصحي ، أو غير ذلك .

---

(١) أساس البلاغة / ص ١٤٥ ، مادة ذنب .

وباختصار ، فان مامن شيء يبعد الانسان ويعميه عن الاعتقاد بالله سبحانه وبأنبيائه وكتبه ويجعله يمقت القيّم الالهية ويستخف بالدين والمتدينين كالذنوب ، وهناك علاقة قوية جدا بين اتجاه النفس نحو الحق والواقع وبين طهارتها وخلوها من المآثم والمعاصي ٠ وان هذا الموضوع لمن أهم المواضيع التي يجب على علماء النفس ((أو بالأحرى علماء آثار النفس)) أن يبحثوا عنها ويرسموا لها خطوطا بيانية ومنحنيات تقريبية ، فان الايمان يتغير ، أي ((يزداد ويقل)) بحسب كثرة الآثام وقلتها بنسب لا يعلمها الّا الله تعالى"١"

ولخطورة الذنوب على الانسان ـ فردا أو مجتمعا ـ حدد الاسلام أساليبا وطرقا وقائية وعلاجية عديدة لمنع الانسان وصده من الوقوع فى مخاطرها الوخيمة ولتخليصه من أضرارها الخطيرة التي تسببها له في الدنيا والآخرة ، لذا يصبح من الضروري أن نتعرف بادىء الأمر على آثار الذنوب وأنواعها ودوافع الاقدام عليها ، وطرق التخلص منها ، وذلك قبل أن نتكلم عن التوبة التي هي من جملة أساليب الاسلام التربوية التي عالج بها مشكلة الاقدام على الذنوب والتلوث بآثامها ٠

---

(١) التكامل في الاسلام / ج ٢ ، ص ١٢٣ ٠

الابعاد السلبية للذنوب

ان كل مااعتبره الاسلام ذنبا أو جرما ، أثبت الواقع انه بطبيعته داع الى فساد الانسان وشقائه ، وهو بالتالي اما ينتهي بضرر مباشر أو غير مباشر على الحياة الفردية أو الاجتماعية ، والى هذه الحقيقة فطن بعض العلماء الماديين في أوربا المعاصرة ، فكان أحدهم يقول :

((ان المعاصي – كما نعلم – تقلل من قيمة الحياة المعنوية ، وان تحمل العيوب والنواقص خطأ فظيع ، فليس كل شخص حرا في تصرفاته ، وعلى هذا فالذي ينحرف عن الطريق المستقيم في الحياة ، ويبدوا متكاسلا مفتريا على الناس ، ولا يبالي بارتكاب مختلف الذنوب يجب أن يعتبر مجرما عاما ، ولكل ذنب آثاره الوخيمة ، حيث يؤدي الى الانحرافات العضوية والنفسية والاجتماعية فكما ان العضّ على أنامل الندم لا يتلافى العيوب الناشئة في جسد المدمن على الخمرة ، أو العيوب

الوراثية في أطفالهم ... كذلك لا يمكن ترميم الانحرافات الناشئة عن الحسد والحقد والغيبة والاثرة والأنانية)) "١"

والى هذه الحقيقة الربانية التي ينادي بها العلماء الاوربيون اليوم أشار الامام علي بن موسى الرضا (ع) قبل أربعة عشر قرنا في رسالة له بعثها الى تلميذه محمد بن سنان ، حينما سأله عن الحكمة من الحلال والحرام ، فكتب اليه يقول :

((... ووجدنا المحرم من الأشياء لاحاجة للعباد اليه ، ووجدناه مفسدا داعيا الى الفناء والهلاك)) "٢"

وهكذا نجد العلم دائما يلتقي مع الدين ، وان كان بعد حين ، فاذا تصفحنا النصوص الاسلامية التي تحدثت عن أضرار المعاصي سوف نجدها دائما تعلل جميع المآسي والمشاكل والنكبات الفردية والجماعية بالجرائم والذنوب التى يرتكبها الناس ، وهذا مايدلل على ان الاسلام يطرح من خلال هذه النصوص ، نظرية متكاملة وقانونا ثابتا يرى على ضوئه ان جميع مايواجهه الانسان في حياته من أضرار مادية ومتاعب نفسية ماهي الا نتيجة تخلفه عن القوانين الالهية التي تتجسد في رسالات السماء للانسان ، قال الله سبحانه وتعالى .

((وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت

---

(١) نقلا عن كتاب الطفل بين الوراثه والتربيه / ج ١ ، ص ٢٠ ــ ٢١
(٢) بحار الانوار / ج ٣ ، ص ١١٨

أيديكـــم)) "١" .

وقال سبحانه :

((ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيهـا رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم اللـــه ، فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كـــانوا يصنعون)) "٢" .

وفي حديث للامام محمد الباقر (ع) ، قال فيه :

((مامن نكبة تصيب العبد الآ بذنب)) "٣" .

فلكل ذنب اذا ضرر خاص على الانسان ، فالزنا والسرقـــة ، والكذب والبهتان والظلم والخيانة ، والتجاوز على حقوق الآخريـــن ، والغيبة والفتنة والنميمة ، كل هذه المحرمات تشبه الجراثيم التـــى تصيب الانسان وتؤدي الى هلاكه عندما لا يعالجها ...

ولا مجال في هذه الدراسة ــ المخصصة لموضوع التوبة ـ للحديث هنا عن مضار كل ذنب من الذنوب وبيان آثاره السيئة على حياة الفرد والمجتمع ، فان مثل هذا العمل يحتاج الى مجلدات ضخمة نظرا لكثرة الذنوب والمحرمات التى نهت الشريعة الاسلامية عنها ، ونتيجـــة لتعدد مساوىء الذنوب واختلاف أضرارها على الفرد والمجتمع لذلك

---

(١) الشـــــورى / ٣٠ .
(٢) النمـــــل / ١١٢ .
(٣) اصول الكافي / ج ٢ ،ص ٢٦٩ .

سوف نتكلم هنا عن آثار المعاصي على حياة الانسان من جهة عامة على ضوء بعض النصوص التي دلّت على ذلك ، هذا مع غض النظر عن أضرار المعاصي على المذنبين يوم القيامة ، فان هذا الموضوع يحتاج الى بحث خاص مستقل به ·

أما آثار الذنوب على الحياة الاجتماعية بشكل خاص ، فسوف نعقد له ـ ان شاء الله ـ فصلا خاصا بعنوان ((**المعصية الجماعية ، والتوبة الجماعية**)) ، وهو الفصل الأخير من هذا الكتاب ·

١
اثر الذنوب على القلب

للذنوب أثر كبير في تلويث النفس وامراضها ، والاكثار منها يحدث قسوة وظلمة في القلب وهذه القسوة كثيرا ماتؤدي بالانسان الى الجرئة على ارتكاب أبشع الجرائم وأكثرها خطرا على حياة الفرد والمجتمع ، وأوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة ، فقال :

((ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ···)) "١" ·

((كلا ، بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون)) "٢"

((في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم

---

(١) البقرة / ٧٤ (٢) المطففين / ١٤

عذاب أليم بما كانوا يكذبون)) "١" .

((فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين)) "٢"

((كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)) "٣"

((... وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الّا قليلا)) "٤"

وقد جائت الأحاديث عن أهل البيت (ع) ، وهم يتحدثون عن أضرار الذنوب على النفس الانسانية ، مفسرة لمضمون هذه الآيات القرآنية ، وموضحة لها ، فقد روي عن الامام محمد الباقر (ع) ،انه كان يقول :

((ما من عبد الّا وفي قلبه نكتة بيضاء ، فاذا أذنب ذنبا خرج في النكتة نكتة سوداء ، فان تاب ذهب ذلك السواد ، وان تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد ، حتى يغطي البياض ، فاذا تغطى البياض لم يرجع صاحبه الى خير أبدا ، وهو قول الله عزّوجل * كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون *))"٥"

---

(١) البقرة / ١٠
(٢) الصف / ٥
(٣) غافر / ٣٥
(٤) النساء / ١٥٥
(٥) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٣

وروي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) حديث قريب من هذا ، قال فيه :

((اذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء، فان تاب انمحت ، وان زاد ،زادت حتى تغلب على قلبه ، فلا يفلح بعدها أبدا)) "١"

وروي عن الامام الصادق (ع) كذلك ، انه قال :

((مامن شيء أفسد للقلب من خطيئته ،ان القلب ليواقع الخطيئة ، فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله)) "٢"

لذلك أمر الاسلام ((المسلم أن لا يستهين بذنب ، ولا يستصغر معصية ، وان يحاسب نفسه ويستغفر الله كلما أذنب أو عصى لتتسع المسافات والأبعاد النفسية بينه وبين المعصية وليبقى))"٣"نقي القلب طاهر السريرة ، فلاتترك المعاصي الطارئة عليه أثرا في قلبه وضميره .

○ ○ ○

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧١ .
(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٦٨ .
(٣) المعصية والشقاء / ص ١٥ .

٢

اقتراف الذنوب ينسي العلم

روي عن رسول الله (ص) ، انه قال :

((اتقوا الذنوب ، فانها ممحقة للخيرات ، ان العبد ليذنب الذنب فينسى به العلم الذى كان قد علمه ...)) "١"

ولهذا قال علمائنا الابرار ((ينبغي لطالب العلم أن يحسن نيته ، ويطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستمراره)) "٢" .

وينقل عن أحد طلاب العلم واسمه (علي بن حشر) انه شكى يوما ضعف ذاكرته لاستاذه – وكان اسمه وكيع – وطلب منه أن يرشده الى دواء يعالج به مرضه هذا ، فنصحه ذلك الاستاذ بترك المعاصي ، فنظم بعضهم هذه النصيحة في بيتين قال فيهما :

---

(١) البحار / ج ٧٣ ، ص ٣٧٧ .

(٢) منية المريد في آداب المفيد والمستفيد ، ص ١٠١ .

شكوت الى وكيع سوء حفظـــي
فأرشدني الى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم فضـــل
وفضل الله لا يؤتاه عاصي "١"

٣
ارتكاب الذنوب يسلب الخشوع

أما فيما يتعلق بدور المعاصي في سلب الخشوع من قلـــب الانسان وأثرها في ابعاده عن العبادات والأعمال الصالحة ، فـــان الروايات عن أهل البيت (ع) كثيرة جدا بهذا الصدد ، فقــد روي عن النبي الأعظم (ص) ، انه قال :

((اتقوا الذنب فانها محقة للخيرات ، ان العبد ليذنب الذنب فينسى به العلم الذى كان قد علمه ، وان العبد ليذنب الذنب فيمنع به من قيام الليل ، وان العبد ليذنب الذنب فيحرم به الرزق ، وقــد كان هنيئا له)) "٢"

ومما يذكر فى هذا الموضوع ، ان رجلا جاء الى الامام علي (ع) وقال له :

((اني قد حرمت الصلاة بالليل ، فقال له الامام :

---

(١) منية المريد في آداب المفيد والمستفيد / ص ١٠١ ٠
(٢) البحار / ج ٧٣ ، ص ٣٧٧ ٠

أنت رجل قد قيدتك ذنوبك)) "١"

ويروى عن الامام جعفر الصادق (ع) ، انه قال :

((يقول الله تعالى : ان أدنى ماأصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتي ، أن أحرمه لذيذ مناجاتي)) "٢"

وروي عنه كذلك ، قوله :

((ان الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل فاذا حرم صلاة الليل حرم بها الرزق)) "٣"

٤

الذنوب تمنع استجابة الدعاء

ذكر علماؤنا الاعلام ان من أهم شروط استجابة الدعاء ـ بعد اخلاص النية ـ هو ترك الذنوب ، وقد استدلوا على ذلك بروايات رويت عن أئمه أهل البيت (ع) ، منها قول الامام محمد بن علي الباقر (ع) :

((ان العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه

---

(١) وسائل الشيعة / ج ٥ ، ص٢٧٩ .
(٢) الحقائق / ص٢٩٨ .
(٣) وسائل الشيعة / ج ٥ ، ص٢٧٨ .

قضاؤها الى أجل قريب أو الى وقت بطئ ،فيذنب العبد ذنبا ، فيقول الله تعالى للملك : لاتقض حاجته ، واحرمه اياها ، فانه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان مني)) "١"

ومنها ، ماروي عن الامام جعفر الصادق (ع) ، وهو يقول :

((ان الله عزّوجلّ يقول : وعزتي وجلالي لاأجيب دعوة مظلوم دعاني في مظلمة ظلمها ، ولأحد عنده مثل تلك المظلمة)) "٢"

ومعنى هذا الحديث ، انك لوظلمت شخصا ، واعتديت على ماله ــ مثلا ــ ولم تتب من ظلمك هذا ، ولم ترجع المال لصاحبه ، ثم جاء شخص آخر واعتدى على أموالك وظلمك حقك وأنت بدورك فزعت الى الله سبحانه ، ودعوت على ظالمك ، فان الله سبحانه لا يستجيب دعائك هذا وان كنت مظلوما ، وذلك لما سبق منك مثل هذا الظلم لأحد العباد ، ولم تتب منه ٠

٥

ارتكاب الذنوب يزيل النعم

وقد ذكر القرآن ذلك ، فقال :

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧١ ،(٢) وسائل الشيعه/ج ١١ ص ٣٤٠

((... كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، ان الله قوي شديد العقاب ، وذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان الله سميع عليم))"١"

وينقل عن الامام جعفر الصادق (ع) ، انه سمع اباه يقول :

((ان الله قضى قضاء حتما الّا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها اياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة)) "٢"

وروي عن الامام جعفر الصادق (ع) ، قوله :

((ما أنعم الله على عبد نعمة فسلبها اياه حتى يذنب ذنبا يستحق بذلك السلب)) "٣"

وروي عنه كذلك انه ، قال :

((الذنب يحرم العبد الرزق)) "٤"

٦

إرتكاب الذنوب ينزل البلاء

قال الله سبحانه في كتابه الكريم :

---

(١) الانفال/ ٥٢ ـ ٥٣

(٢) اصول الكافي/ج ٢، ص ٢٧٣

(٣) اصول الكافي ،ج ٢ ص ٢٧٤

(٤) اصول الكافي/ج ٢، ص ٢٧١

((**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**)) "١"

وروي عن الامام أمير المؤمنين (ع) ، انه قال :

((**توقوا الذنوب ، فما من بلية ولا نقص رزق الآبذنب حتى الخدش والكبوة والمصيبة ، قال الله عزوجل : * وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ***)) "٢"

وروي عن الامام جعفر الصادق (ع) حديث قريب من هذا ،قال فيه :

((**أما انه ليس من عرق يضرب ولا نكبه ولا صداع ولا مرض الّا بذنب ،وذلك قول الله عزّوجل في كتابه : * وما أصابكم من مصيبه فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ***، ثم قال (ع) : **ومايعفوا الله (عنه) أكثر مما يؤاخذ به**))"٣"

وروي عن الامام محمد الباقر (ع) انه قال :

((**مامن نكبة تصيب العبد الّا بذنب**)) "٤"

وروي عن الامام علي بن موسى الرضا (ع) بهذا الصدد قوله :

((**كلما أحدث العباد من الذنوب مالم يكونوا**

---

(١) النــــور / ٦٣
(٢) الخصال ،ج ٢،ص ١٥٨
(٣) اصول الكافي/ج ٢،ص ٢٦٩
(٤) اصول الكافي ،ج ٢،ص ٢٦٩

يعلمون ، أحدث الله لهم من البلاء مالم يكونـــوا يعرفون)) "١"

وينقل عن الامام جعفر الصادق (ع) ، قوله :

((من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجـــال ، ومن يعيش بالاحسان أكثر ممن يعيش بالاعمار)) "٢"

وروي عنه كذلك ، انه قال :

((يقول الله عزّوجل : اذا عصاني من عرفني سلطت عليه من لا يعرفني)) "٣"

وهكذا يتضح لنا ان اقتراف الذنوب عمل مهدد لحياة الانسان بكل جوانبها ... ولهذا كان الأئمة من أهل البيت (ع) دائمـــا يحثون المؤمنين بأساليبهم التربوية الخاصة على ضرورة تربية الـــذات ومحاربة النفس الأمارة بالسوء ، وقطع الطرق المؤدية بها الى المعصية وكانت طريقة التربية ((**بالدعاء والمناجات**)) من أهم وأبرز الأساليب التربوية التي تميّز بها أهل البيت (ع) في تربية أتباعهم ، وهـــم يعيشون شتى الضغوط الجائرة من حكام عصرهم الظالمين ويواجهـون مختلف مظاهر الفساد والانحراف التي تنتشر يوما بعد يوم في المدن الاسلامية بتشجيع من السلطات الأموية والعباسية . وفي هذه الاجواء

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
(٢) امالى الطوسي / ج ١ ، ص ٣١١ .
(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

ترك أهل البيت (ع) تراثا عظيما من الأدعية والمناجات التي تؤلف بوحدها منهجا تربويا روحيا متكاملا له أثره العظيم في تعبيد الانسان لله سبحانه ، وشده الى المعنويات وانتشاله من حالات السقوط وابعاده عن كل التصورات الشهوانية والمادية التي تقوده الى الرذيلة وتنتهي به الى طريق الشر والفساد . ومن تلك الأدعية دعاء كميل للامام أمير المؤمنين (ع) ، هذا الدعاء العظيم الذى دأب الشيعة على قرائته في كل ليلة جمعة في المراقد المقدسة والمشاهد المشرفة وفي بيوتهم ومساجدهم ، ومما جاء في هذا الدعاء حول أضرار الذنوب ومساوئها ، قوله (عليه السلام) :

((**اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم**
اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم
اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم
اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء
اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء
اللهم اغفر لي كل ذنب أذنبته ، وكل خطيئة أخطأتها)) "١"

○ ○ ○

---

(١) مفاتيح الجنان / دعاء كميل .

انواع الذنوب

للذنوب تقسيمات عديدة ، وللاختصار سوف نقتصر على تقسيمها من جهة عقلية تارة ، ومن جهة شرعية تارة أخرى .

التقسيم العقلي للذنوب

يمكن تقسيم الذنوب والمعاصي التي تؤدي الى تدمير الشخصية وفساد النظام الاجتماعي ، واحلال الفوضى فيه — من وجهة نظر عقلية الى ثلاثة أنواع رئيسية ، وهي :

***أولا** : الذنوب التي توجب الاستهانة بحقوق الله تعالى ، والتمرد على ربوبيته ، كالشرك والكفر به ، وكترك عبادته استكبارا واستنكارا ، مثل ترك الصلاة أو الصوم أو الحج ، أو غير ذلك من الواجبات التي يجمعها عنوان ((حقوق الله تعالى)) .

***ثانيا** : الذنوب التي توجب استهانة الانسان بحق نفسه ، وعدم امتثال أوامر الله سبحانه — فيما نهاه عن أعمال تعود بالضرر عليه ، كالتكبر والغرور ، والانتحار ، وشرب الخمور ، والرياء واللواط ، وغيرها

من المعاصي والآثام التي تجعل الانسان مقصرا ((بحق نفسهوكرامته)) .

ثالثا : الذنوب التي توجب الاستهانة بكرامة الناس والاعتداء على أموالهم وأعراضهم ، وذلك بارتكاب الجرائم التي يتعدى ضررها الى الآخرين من أبناء المجتمع كالسرقة والغش والاحتكار والظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي ... وكالقتل والغيبة والنفاق بين المسلمين أو اتهامهم أو اهانتهم أو ايذائهم ، وغير ذلك من المعاصي والجرائم التي يعتدي بها العاصون والمجرمون على (حقوق الناس) "١".

التقسيم الشرعي للذنوب

وللذنوب من جهة شرعية تقسيمات عديدة ، فالاسلام يقسم الحقوق الى قسمين فقط ، حقوق لله ـ سبحانه ـ ، وحقوق للناس ، وتبعا لذلك تقسم المعاصي في نظره الى معصية في (**حق الله تعالى**) ، ومعصية في (**حق الناس**) .

ويقسم الفقهاء من جهة أخرى المعاصي والذنوب الى كبائر ،

---

(١) ولا يخفى ان هذه الأنواع متداخلة في بعضها ، فالذنب الواحد الذي يوجب الاستهانة بحقوق الناس هو في نفس الوقت يوجب الاستهانة بحقوق الله لعدم امتثال أمره في ترك هذه المعصية ، وهو كذلك يوجب الاستهانة بحقوق النفس .

وصغائر ، وقد استفادوا هذا التقسيم من نصوص كثيرة وصريحة وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ومن هذه النصوص الواضحة ، قول الله سبحانه :

((ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما)) "١"

فقد كشفت هذه الآية عن وجود نوعين من الذنوب ((**كبائر**)) و ((**صغائر**)) وذلك بدلالة المقابلة بين اجتناب الكبائر والتكفير عن السيئات"٢" التى اعتبرها الفقهاء هي الصغائر في الآية :

ونظير الاية السابقة في الدلالة قوله تعالى :

((ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا

---

(١) النساء / ٣١ .

(٢) ولا يشتبه عليك أيها القارئ الكريم ، فان كلمة (السيئات) قد استعملت كثيرا في القرآن الكريم ، ولكنها ليست بمعنى واحد ، وانما استعملت تارة بمعنى المصائب والأمور التى يسوء الانسان وقوعها ، كما في قوله تعالى ((وما أصابك من سيئة فمن نفسك)) النساء / ٧٩ ، واستعملت تارة أخرى في بيان آثار المعاصي في الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : ((فأصابهم سيئات ما عملوا)) النحل / ٣٤ ، وربما اطلقت على مطلق المعاصي صغيرة أم كبيرة ، كقوله تعالى ((أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون)) الجاثية / ٢١ ، أما في الآية الكريمة التي =

كبيرة الّا أحصاها)) "١"

فان خوفهم واشفاقهم مما في الكتاب الذي يؤتى به يوم القيامة يدل على أن المراد بالصغيرة والكبيرة في قولهم هذا ، صغائر ذنوبهم وكبائرها ٠

وسنتحدث – فيما يلي – عن الذنوب الكبائر والصغائر بشكل مفصل كل على انفراد ٠

كبائر الذنوب

اختلف فقهاء المسلمين قاطبة في تعريف المعصية الكبيرة فذكروا لذلك تعريفات عديدة ومختلفة قد يتناقض بعضها مع البعض الآخر ، ويبلغ مجموعها أكثر من خمسة عشر تعريفا ، وأكثرها لا يسلم من النقد ٠

ومن أهم هذه التعريفات قول بعضهم : ان الكبائر هو كل ما اشتملت عليه سورة النساء من أولها الى تمام ثلاثين آية أي الى قوله تعالى :

((ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما)) "٢"

= استشهدنا بها فقد استعملت بمعنى (صغائر الذنوب) بدلالة السياق

(١) الكهف / ٤٩ (٢) النساء / ٣١

وكأن هذه الآية في نظر هؤلاء تشير الى المعاصي المبيّنة في الآيات السابقة عليها لاغير .

ويرد على هذا التعريف بأنه فهم مناف لاطلاق الآية ، فالآية في معرض بيان مفهوم الكبيرة ، وقد حددته بما ((تنهى عنه)) سواء جاء هذا النهي من القرآن الكريم بمجموعه لا في سورة النساء فقط — أو جاء على لسان النبي (ص) الذى لا ينطق عن الهوى .

ومن هذه التعريفات المهمة قولهم :

ان **الكبيرة** : كل ما أوعد الله سبحانه عليه في يوم الحساب عقابا ووضع له في الدنيا حدّاً .

ويرد عليه ان هناك ذنوب ثبت بالنص انها من الكبائر ، في حين نجد الشريعة الاسلامية لم تعين لها حدودا كأكل الربا مثلا أو الاصرار على الصغيرة فانه كبيرة باتفاق الفريقين ، حيث رووا عن رسول الله (ص) قوله :

((**لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار**))

وكذلك ولاية الكفار تعتبر من الكبائر في الاسلام ، ومع ذلك ليس لهذه المعصية حد في الشريعة "١"

ومن هذه التعريفات والايضاحات لبيان معنى الكبيرة ، ما ذهب

---

(١) ولكن الشريعة الاسلامية أعطت صلاحيات خاصة للامام ونائبه في الحكم لتحديد العقوبات المناسبة لمرتكبي مثل هذه الجرائم التي لم تعين الشريعة لها حدّاً ثابتا .

اليه أبو حامد الغزالي ووافقه الفيض الكاشاني وتابعهما الشيخ النراقي والعلامة البهائي رحمة الله عليهم اجمعين "١"

قال أبو حامد :

ان الشرع ربما أبهم الكبائر ولم يعيّنها ليكون العباد على وجل منها ، فيجتنبون جميع الذنوب خوفا من الوقوع في الكبائر كما أبهم ليلة القدر ليجدّوا ويجتهدوا في العبادة في سائر ليالي شهر رمضان المبارك ٠

والحق ان كلام هؤلاء الأجلاّء من علمائنا الاتقياء لا ينسجم مع ظاهر النصوص الشرعية التى نصت على كثير من الكبائر ، كما أعطت بعضها قواعد عامة لمعرفة الكبائر التي لم ينص عليها ، كالاية التي حددت مفهوم الكبيرة بما ((تنهى عنه)) فقالت : ((ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ٠٠٠)) سواء جاء هذا النهي في القرآن أو في أحاديث المعصومين ٠

فهذه الآية لا يستفاد منها الدعوة الى اجتناب جميع الذنوب – حتى الصغائر – مخافة الوقوع في الكبائر المبهمة كما فهم ذلك الغزالي ، ومن تابعه ، كما انها لا تمنع من معرفة الذنوب الكبائر فان ذلك معنى بعيد عن مساقها ، بل المستفاد من ظاهرها ان المخاطبين هم قادرون على معرفة الكبائر والتمييز بينها وبين الصغائر

---

(١) راجع كلامهم في بحث التوبة في احياء الأحياء للغزالي ، والمحجة البيضاء للكاشاني ، وجامع السعادات للنراقي ، والأربعين للبهائي ٠

وذلك مَنْ النهي المتعلق بالكبائر ((ولا أقل أن يقال ان الاية تدعو الى معرفة الكبائر حتى يهتم المسلمون في اتقائها كل الاهتمام ، لأن معرفه الكبائر طريق الى اجتنابها فيجب ان يتعرفوا عليها حتى لا يقعوا في ارتكابها نتيجه تهاونهم عن معرفتها الذي هو احدى الكبائر في الاسلام "١" .

أما الابهام الحاصل في ليلة القدر ان كان مسلما، فان احياء هذه الليلة المباركة ليس واجبا شرعيا[1]، بينما اجتناب الكبائر من أهم الواجبات التي يعاقب مقترفها أشد العقوبات ، فليس اذا من المعقول أن ينهى الله تعالى عباده عن أمور جعلها مبهمة عليهم ، ومع ذلك يعاقبهم على فعلها يوم القيامة .

أليس جلّ ذكره هو القائل :

((ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين)) "٢" .

فأين هذه الحدود التي نهى الله عن تجاوزها اذا كانت كبائر الاثم في حدوده وشريعته مبهمة ، وهي أهم حدوده جلّ شأنه؟!!

والواقع ان الاختلاف بين علماء الاسلام وفقهائه في تعريف الكبيرة يرجع في حقيقته الى اختلاف الروايات في تعداد الكبائر وبيان مفهومها وحدودها ، ولكي نتعرف على الحقيقة لا بأس أن

---

(١) الميزان / ج ٤ ، ص ٣٢٥ .
(٢) النساء/ ١٤ .

نستعرض جملة من هذه الروايات التي تحدثت عن الكبائر ، فانه يروى عن الامام أبي عبد الله الصادق (ع) وحده أكثر من أربع روايات مختلفة حول عدد الكبائر ، وبيان المفهوم العام لها ، فقد نقل عن أبي بصير ، قال : سمعت أبا عبد الله ـ الامام الصادق ـ عليه السلام يقول :

((الكبائر سبعة : منها قتل النفس متعمدا ، والشرك بالله العظيم ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا بعد البينة ، والفرار من الزحف ، والتعرب بعد الهجرة ، وعقوق الوالدين ، وأكل مال اليتيم ظلما ، قال : والتعرّب والشرك واحد)) "١" .

وفي رواية أخرى عن الامام الصادق (ع) ، كذلك يرويها الحلبي عنه في تفسير قول الله عزّوجل :

((ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما)) ، قال (ع) : الكبائر التي أوجب الله عزّوجل عليها النار)) "٢" .

وروى محمد بن عمير عن بعض أصحابه عن الامام الصادق قوله(ع):

((وجدنا في كتاب علي (ع) : أن الكبائر خمس الشرك بالله عزّوجل ، وعقوق الوالدين ، وأكل

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٨١ .
(٢) = = = ، ص ٢٧٦ .

الربا بعد البينة ، والفرار من الزخف والتعـــرب بعد الهجرة)) "١" .

وقال عبيدة بن زرارة سألت الامام الصادق (ع) عن الكبائـــر ، فقال :

((هن في كتاب علي (ع) سبع : الكفر باللــــه ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا بعـــد البينة ، وأكل مال اليتيم ظلما ، والفرار من الزحف والتعرب بعد الهجرة))

قال عبيدة بن زرارة فقلت : فهذا أكبر المعاصي ؟ ، قال (ع) نعم ! قلت : فاكل درهم من مال اليتيم ظلما أكبر ، أم ترك الصلاة؟ ، قال (ع) : ترك الصلاة ، قلت: فما عددت ترك الصلاة في الكبائر؟ فقال (ع) : أي شيء أول ماقلت لك ؟ قال : قلت الكفر ، قال (ع) : فان تارك الصلاة كافر)) "٢" .

وروى عن محمد بن سنان انه سمع استاذه الامام الصادق (ع) يقول :

((الكبائر سبع ثم عددها ، وأخيرا قال : وكل مـــا أوجب الله عليه النار)) "٣" .

---

(١) الخصال / ج ٢ ، ص٢٧٣ .
(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص٢٧٨ .
(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص٢٧٧ .

وفي رواية أخرى عن الامام الصادق (ع) ، ذكر فيها عشرين كبيرة مستدلا على كل واحدة منها بآية من القرآن الكريم"١" .

وقد عدد الكبائر بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام ، الى ثمانية ، وبعضهم الى تسعة ، ونقل أصحاب الحديث عن ابن عباس انه سئل عن الكبائر أسبع هي؟ فقال :

((الى السبعمائة أقرب منها الى السبعة)) "٢"

والذي يغلب عليه الظن انه ليس بين هذه الروايات اختلاف ، لأنها جائت كلها بهدف واحد ،وهو : اعطاء قاعدة عامة لبيان مفهوم الكبيرة ، والاختلاف في بيان عدد الكبائر في هذه الروايات استخدم من أجل تقرير هذه القاعدة ، على ضوء التعريف بالمثال،كما يدلنا على ذلك اعتراض عبيدة بن زرارة على الامام الصادق (ع) حينما عدد الكبائر ولم يذكر منها ((ترك الصلاة)) فأجابه الامام قائلا:((أي شيء أول ماقلت لك ؟)) فقال ابن زرارة ((الكفر)) فقال الامام : ((فان تارك الصلاة كافر)) .

ومما يعزز هذا الرأي رواية محمد بن سنان عن الامام الصادق (ع) عندما سمعه يعدد الكبائر فذكر منها ستة ، ثم قال :((وكل ما أوجب الله عليه النار)) مما يكشف لنا ان الامام الصادق (ع) بصدد اعطاء قواعد عامة لمعرفة بعض الكبائر وليس هو في معرض تعداد

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٨٥ .
(٢) الأربعين / ص ١٩٢ .

الكبائر كلها .

وحينما سئل ابن عباس رضوان الله عليه ،عن الكبائر أسبع هي؟ أجاب: الى السبعمائة أقرب منها الى السبعة . مما يكشف بأن الكبائر السبع التي ذكرها الامام الصادق (ع) وغيره من الأئمة ، هي أصول الكبائر ، وليس كلها ، ومن خلال هذه الاصول يمكن معرفة قسم آخر من الكبائر ، كما أوضح ذلك الامام الصادق (ع) ، لعبيدة بن زرارة . ولهذا كان ابن عباس يرفض حصر الكبائر في السبعة،ومن هذا المنطلق حاول فقهائنا (رضوان الله عليهم) الجمع بين هذه الروايات على ضوء مادلت عليه من قواعد عامة، غير متعارضة استفادوا من مجموعها الكلي ، عدم محدودية كبائر الذنوب بما ذكرته الآيات والروايات فقط . وعلى أساس هذا الفهم عرّف الامام الخميني (حفظه الله) الكبائر بقوله :

((وأما الكبائر فهي : كل معصية ورد التوعدعليها بالنار أو بالعقاب ، أو شدد عليها تشديدا عظيما ، أو دلّ دليل"1" على كونها أكبر من بعض الكبائر أو مثله ، أو حكم العقل بأنها كبيرة ، أو كان في ارتكاز المتشرعة كذلك ، أو ورد النص بكونها كبيرة وهي كثيرة ..))"2"

---

(1) المقصود بالدليل هنا هو أحد أدلة استنباط الحكم الشرعي .
(2) تحرير الوسيلة /ج 1 ، ص 274 .

وبهذه القواعد الفقهية العامة التي استفادها فقهائنا من القرآن والسنة يتبدد الغموض والابهام الذي يحيط مفهوم الكبيرة ، فلا تبقى كبائر الذنوب بعد ذلك مجهولة لدى المسلمين ،كما تصور ذلك أبو حامد الغزالى ومن تابعه من علمائنا الأجلّاء .

والخلاصة ان الشريعة الاسلامية بيّنت الكبائر ، وحددتها باسلوبين رئيسيين :

الأول : انها نصّت بصراحة على كثير منها في القرآن الكريم، وسنة المعصومين (ع) .

الثاني : وضعت قواعد عامة لمعرفة الكبائر التي لم ينص عليها صراحة في القرآن والسنة . ومن جملة هذه القواعد (اجتناب مانهى عنه الله سبحانه نهيا شديدا) ، فبعض المحرمات لم ينص الشرع على كونها كبيرة ، ولكنه نهى عنها نهيا شديدا ، وهذا كاف في اعتبارها من الكبائر وفقا للقاعدة المذكورة .

وهكذا نطبق قاعدة ((اجتناب ماوعد الله تعالى عليه نار جهنم)) واعتبار كل ماتشمله هذه القاعدة من الكبائر ،أو قاعدة ((اجتناب الكفر بكل أنواعه)) تلك التي أشار اليها الامام الصادق (ع) في حديثه لعبيدة بن زرارة ، وغير ذلك من القواعد الفقهية الأخرى التي ذكرها الامام الخميني في تعريفه لمفهوم الكبيرة .

قائمة في بعض كبائر الذنوب

ولأجل الفائدة التربوية نذكر هنا قائمة مرقمة تتناول بعض كبائر الذنوب المستفادة من الآيات القرآنية والروايات المعتبرة ، ننقلها من كتاب (تحرير الوسيلة) للامام الخميني ، ولزيادة الفائدة نحاول أن نذكر لكل كبيرة من هذه الكبائر النصّ الشرعي الذي دلّ عليها "١" ٠

١ ـ اليأس من روح الله ٠ قال سبحانه :

((**يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الّا القوم الكافرون**)) "٢"

٢ ـ الأمن من مكر الله ، قال سبحانه :

((**أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الّا القوم الخاسرون**)) "٣"

٣ ـ الكذب على الله ورسوله وأوصيائه ٠ قال سبحانه :

---

(١) ادلة الكبائر التي ذكرت هنا نتحمل مسؤولية الخطأ فيها ان وجد ، لأن الامام الخميني حفظه الله تعالى ذكرها مجردة عن أدلتها في رسالته العملية ((تحرير الوسيلة)) ٠

(٢) يوسف / ٨٧ ٠ (٣) الاعراف / ٩٨ـ٩٩ ٠

((فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق ، اذ جائه أليس في جهنم مثوى للكافرين)) "١"

٤ ـ قتل النفس المحترمة · قال سبحانه :

((ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ، ولعنه وأعد له عذابا عظيما)) "٢"

٥ ـ عقوق الوالدين · قال سبحانه :

((قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا)) "٣"

وقال سبحانه :

((وقضى ربك ألّا تعبدوا الّا اياه وبالوالدين احسانا ، امّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذلّ من الرّحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا)) "٤"

٦ ـ أكل مال اليتيم ظلما ، قال سبحانه :

---

١) الزمر / ٣٢ (٢) النساء / ٩٣

٣) مريم / ٣٢ (٤) الاسراء / ٢٣ ـ ٢٤

((ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)) "١"

٧ ـ قذف المرأة المحصنة ، ويراد به اتهامها بالزنا وماشابه ، قال سبحانه :

((والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، الّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم)) "٢"

وكذلك القذف باللواط كما دلّت عليه الروايات .

٨ ـ الفرار من الزحف عندما يكون الجهاد واجبا على المسلمين، قال سبحانه :

((ومن يولهم يومئذ دبره ، الّا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئه فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)) "٣"

٩ ـ قطيعة الرحم بين ذوي القربى ، قال سبحانه :

((فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الارض

---

(١) النساء / ١٠ .
(٢) النور / ٤ ـ ٥ .
(٣) الانفال / ١٦ .

وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم
وأعمى أبصارهم)) "١"

١٠ ــ تعلم السحر والعمل به للاضرار بالآخرين ، قال سبحانه :

((... يعلمون الناس السحر وما أنزل على
الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد
حتى يقولا انما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما
ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، ويتعلمون ما يضرهم
ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة
من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا
يعلمون)) "٢"

١١ ــ الزنا ، قال سبحانه :

((والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون
النفس التي حرم الله آلا بالحق ولا يزنون ، ومن
يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم
القيامة ويخلد فيه مهانا آلا من تاب وآمن وعمل
عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات
وكان الله غفورا رحيما)) "٣"

---

(١) محمد / ٢٢ ــ ٢٣ (٢) البقرة / ١٠٢
(٣) الفرقان / ٦٨ ــ ٧٠

١٢ ـ اللواط ، قال سبحانه :

((واللذان يأتيانها منكم فاذوهما فان تاباوأصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توّابا رحيما)) "١"

١٣ ـ السرقة ، قال سبحانه :

((السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم)) "٢"

١٤ ـ اليمين الغموس ، قال سبحانه :

((... ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاف لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)) "٣"

١٥ ـ كتمان الشهادة ، قال سبحانه :

((.. ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم)) "٤"

١٦ ـ شهادة الزور ، قال سبحانه :

((فمن بدّله بعد ماسمعه فانما اثمه على الّذين يبدلونه ان الله سميع عليم)) "٥"

---

(١) النساء / ١٦
(٢) المائدة / ٣٨
(٣) آل عمران / ٧٦ـ٧٧
(٤) البقرة / ٢٨٣
(٥) البقرة / ١٨١

١٧ ـ نقض العهد ، قال سبحانه :

((**وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ٠٠٠**))"١"

((**وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم واياي فارهبون**))"٢"

١٨ ـ الحيف في الوصية :

قال الصدوق في الفقيه: وروي في بعض الاخبار: ان **الحيف في الوصية من الكبائر**"٣" . أقول لم أقف على نص لها غير كلام الصدوق هذا .

١٩ ـ شرب الخمر والفقاع وكل ماكان مسكرا ، قال سبحانه :

((**ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون**)) "٤"

٢٠ ـ أكل الربا ، قال سبحانه :

((**الذين يأكلون الربا لا يقومون الّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جائه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره الى**

---

(١) النحل / ٩١ (٢) البقرة / ٤٠

(٣) مالا يحضره الفقيه/ج ٣، ص ٣٦٩ (٤) المائدة/ ٩٠ـ ٩١

الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحبّ كل كفّار أثيم)) "١"

٢١ ــ أكل السحت ، قال سبحانه :

((سماعون للكذب أكّالون للسحت ٠٠٠)) "٢"

وقد نصت الروايات المعتبرة عن أهل البيت (ع) على كونه من الكبائر ٠

٢٢ ــ اللعب بالقمار ، وقد دلت على حرمته وكونه من الكبائر آية الخمر السابقة ٠

٢٣ ــ أكل لحم الميتة ، قال سبحانه :

((انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم)) "٣"

٢٤ ــ أكل الدم ، وقد دلت على حرمته الآية السابقة ٠

٢٥ ــ أكل لحم الخنزير ، كذلك ذكر في الآية السابقة ٠

٢٦ ــ أكل ما أهل لغير الله تعالى ، من غير ضرورة ، والمراد به أكل ما ذبح لغير وجه الله سبحانه ، وقد دلت على حرمته الآية السابقة كذلك ٠

---

(١) البقرة / ٢٧٥ــ٢٧٦ (٢) المائدة / ٤٢
(٣) البقرة / ١٧٣ ٠

٢٧ ـ البخس في المكيال ، والمراد به نقص الناس أشيائهم فيما يوزن من المبيعات ، وقد دلّ على حرمته وكونه من الكبائر قوله سبحانه :

((**ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين**)) "١"

٢٨ ـ التعرّب بعد الهجرة ، وكانت تطلق على كل من هاجر الى المدينة ((عاصمة الاسلام الأولى)) ثم غادرها الى قرى الاعراب التى لا دين فيها ، ويستثنى من ذلك المبلغ الرسالي الذى يحمل تعاليم الاسلام لهذه القرى ، ويطبق فقهاء الاسلام هذا الحكم اليوم على كل مسلم يسافر من وطن اسلامي محافظ الى وطن آخر يخاف فيه على عقيدته ودينه وأخلاقه من الانحراف .

ذكرت هذه الكبيرة روايات كثيرة عن أهل البيت (ع) منها ماجاء بسند صحيح ، عن ابن محبوب ، قال : كتب معي بعض أصحابنا الى أبي الحسن (ع) ، يسأله عن الكبائر ، كم هي ؟ وما هي ؟ ، فكتب (ع) :

((**الكبائر من اجتنب ماوعد الله عليه بالنار كفرّ عنه**

---

(١) المطففين / ١ ـ ٦ .

سيئاته اذا كان مؤمنا ، والسبع الموجبات : قتل النفس الحرام وعقوق الوالدين وأكل الربا والتعرب بعد الهجرة وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف)) "١"

٢٩ _ معونة الظالمين ، قال سبحانه :

((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ،ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين)) "٢"

٣٠ _ الركون الى الظالمين ، قال سبحانه :

((ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ،ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون)) "٣"

٣١ _ حبس الحقوق من غير عذر ، ذكر ذلك الامام علي بن موسى الرضا (ع) فى كتابه للمأمون "٤"

٣٢ _ الكذب ، قال سبحانه :

((يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)) "٥"

وقال سبحانه :

---

(١) اصول الكافي /ج ٢ ،ص ٢٧٦ (٢) المائدة / ٥١
(٣) هود / ١١٣ (٤) وسائل الشيعة/ج ١١،ص ٢٦٠
(٥) الصف / ٢ _ ٣ .

((انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون)) "١"

٣٣ ـ التكبر ، قال سبحانه :

((فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين)) "٢"

٣٤ ـ الاسراف ، قال سبحانه :

((... وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين)) "٣"

٣٥ ـ التبذير ، قال سبحانه :

((ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا)) "٤"

٣٦ ـ الخيانة ، قال سبحانه :

((ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحبّ من كان خوّانا أثيما)) "٥"

٣٧ ـ الغيبة ، قال سبحانه :

((يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم

---

(١) النحل / ١٠٥
(٢) النحل / ٢٩
(٣) الاعراف / ٣١
(٤) الاسراء / ٢٧
(٥) النساء / ١٠٧

بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم)) "١"

٣٨ ـ النميمة ، قال سبحانه :

((هماز مشاء بنميم ،مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم)) "٢"

وقال سبحانه ، :

((ويل لكل همزة لمزة)) "٣" أي النمام المغتاب ·

وروي عن رسول الله (ص) انه قال :

((لا يدخل الجنه نمام)) "٤"

٣٩ ـ الاشتغال بالملاهي : ذكر هذه الكبيرة الامام الرضا (ع) في كتابه للمأمون "٥"

٤٠ ـ الاستخفاف بالحج ، قال سبحانه :

((··· ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين)) "٦"

٤١ ـ ترك الصلاة المفروضة ، قال سبحانه :

((كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين في جنات يتسائلون عن المجرمين ماسلكم في سقر ؟

---

(١) الحجرات / ١٢
(٢) القلم/ ١١ ـ ١٣
(٣) الهمزة / ١
(٤) جامع السعادات/ج٢،ص٢٧٥
(٥) وسائل الشيعة/ج١١،ص٢٦١
(٦) آل عمران/ ٩٧

((قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم
المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب
بيوم الدين)) "١"

٤٢ ـ منع الزكاه الواجبة ، قال سبحانه :

((ياأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار
والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون
عن سبيل الله،والذين يكنزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم
يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم
وجنوبهم وظهورهم ، هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا
ماكنتم تكنزون)) "٢"

٤٣ ـ الاصرار على المعصية الصغيرة ، جاء ذكرها في أحاديث كثيرة عن أهل البيت (ع) ، ومنها حديث الامام الصادق (ع) :

((لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار)) "٣"

٤٤ ـ الشرك بالله العظيم ، قال سبحانه :

((ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون
ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى
اثما عظيما)) "٤"

---

(١) المدثر / ٣٨ ـ ٤٦ (٢) التوبة/ ٣٤ ـ ٣٥
(٣) اصول الكافي/ج ٢ ،ص٢٨٨ (٤) النساء / ٤٨

٤٥ ـ انكار ما أنزل الله تعالى ، قال سبحانه :

((والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم)) "١" .

٤٦ ـ محاربة أولياء الله "٢" ، ذكر هذه الكبيرة الامام الرضا (ع) فى كتاب كتبه للمأمون "٣" .

٤٧ ـ الكفر بالله العظيم ، قال سبحانه :

((والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) "٤"

٤٨ ـ كتمان ما أنزل الله تعالى من الأحكام ،قال سبحانه :

((ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الآ النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)) "٥"

٤٩ ـ الاضلال عن سبيل الله ، قال سبحانه :

---

(١) المائدة / ١٠

(٢) الى هنا تم بيان الكبائر التي ذكرت في تحرير الوسيلة ج ١ ص ٢٧٤ وماسنذكره بعدها فهو من استدراكاتنا .

(٣) وسائل الشيعة / ج ١١ ، ص ٢٦١ (٤) البقرة / ٢٥٧ .

(٥) البقرة / ١٧٤ .

((ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك ، وان الله ليس بظلام للعبيد)) "١"

٥٠ ـ الحكم بغير ما أنزل الله ، قال سبحانه :

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)) "٢"

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)) "٣"

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)) "٤"

٥١ ـ المنع من ممارسة الشعائر الاسلامية في مساجد المسلمين وبالأخص في بيت الله ، مكة المكرمة ، قال سبحانه :

((ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى في خرابها ، أولئك ماكان لهم أن يدخلوها الّا خائفين ، لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم)) "٥"

٥٢ ـ النفاق بين المسلمين ، واشده حرمة ماكان بين العاملين والمجاهدين لتفريق صفوفهم ، قال الله سبحانه في وصف المنافقين :

---

(١) الحج / ٨ ـ ١٠
(٢) المائدة / ٤٤
(٣) المائدة / ٤٥
(٤) المائدة / ٤٧
(٥) البقرة / ١١٤ .

((ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه ، وهو ألدّ الخصام ، واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحبّ الفساد ،واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد)) "١"

((ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يرائون الناس ولا يذكرون الله الّا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ،ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ،ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا)) "٢"

وقال الله سبحانه يصف حال المنافقين يوم القيامة :

((يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم ، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم

---

(١) البقرة / ٢٠٤ ــ ٢٠٦ (٢) النساء/ ١٤٢ ــ ١٤٥

الأماني حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور)) "١"

وقال سبحانه :

((ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا)) "٢"

٥٣ ـ الفتنة ، قال سبحانه :

((٠٠الفتنه أكبر من القتل)) "٣"

٥٤ ـ الظلم ، قال سبحانه :

((٠٠٠ انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ، وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا)) "٤"

٥٥ ـ اشاعة الفاحشة بين المسلمين ، قال سبحانه :

((ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون)) "٥"

٥٦ ـ التجسس على المسلمين ، دلت على حرمته الآية التي نهت عن الغيبة ٠

٥٧ ـ الغلول ، ومعناه : الخيانه في غنائم الحرب والسرقة

---

(١) الحديد / ١٣ ـ ١٤ (٢) النساء / ١٤٠

(٣) البقرة / ٢١٧ (٤) الكهف / ٢٩

(٥) النور / ١٩ ٠

منها قبل القسمة ، وقد دلّ على حرمة ذلك قوله سبحانه :

((وما كان لنبى أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ، ثم توفّى كلّ نفسٍ ماكسبت وهم لا يظلمون)) "١"

٥٨ ــ محاربة المؤمنين وايذائهم ، قال سبحانه :

((ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق)) "٢"

٥٩ ــ الرياء ، وهو نوع من أنواع الشرك ، قال سبحانه :

((ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رءاء الناس ،ولا يؤمن بالله واليوم الآخر كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين))"٣"

٦٠ ــ القيادة ، وهي:الجمع بين اثنين لعمل الفحشاء،ويسمى فاعله قواد . قال الشيخ الصدوق ، روي انه : لعن رسول الله(ص) الواصلة والمؤتصلة ــ يعني الزانية والقوادة في هذا الخبر ــ"٤"

٦١ ــ الافتاء بغير علم متعمدا ، قال سبحانه :

((ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم

---

(١) آل عمران / ١٦١ (٢) المجادلة / ١٠

(٣) البقرة / ٢٦٤ (٤) مالا يحضره الفقيه/ج ٤ ،ص ٣٤ باب حد القواد

تعلمون)) "١"

وقال رسول الله (ص) :

((من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض)) "٢"

٦٢ ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دون عذر :

((لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ،لبئس ماكانوا يفعلون)) "٣"

صغائر الذنوب

وهي المعاصي التي لم يتوعد الله تعالى مرتكبها نار جهنم ،ولم يرد فيها نهي شديد ، وبالجملة هي : الذنوب والمحرمات التي لاتندرج تحت القواعد العامة التي حددها الفقهاء لمعرفة الكبائر ، وهي كثيرة كذلك ، منها ((لبس الحرير ولبس الذهب بالنسبة

---

(١) البقرة / ٤٢ .

(٢) تحف العقول ، ص٣٤ .

(٣) المائدة / ٧٨ ـ ٧٩

للرجال)) . و((مجالسة أهل الشرب ، بل مطلق الجلوس على مائدة فيها مأكول أو مشروب محرم)) و((الشرب في آنية الذهب والفضة)) و ((تناول لقمة أو جرعة متنجسة)) و ((الخلوة مع الأجنبية)) و ((النظر لها بشهوة)) و ((حلق اللحية)) و((سقطات اللسان)) و ((الزهو والغرور اذا لم يكونا وسيلة الى الاساءة والاضرار بالآخرين)) وغير ذلك .

وقد أكدت الشريعة الاسلامية على أهمية اجتناب صغائر المعاصي ، معتبرة ذلك من أهم الأساليب التربوية التي ينبغي للمسلم الملتزم أن يعوّد نفسه عليها مقدمة لمنعها وصدّها عن الوقوع في الكبائر ، وقد قرر هذا المفهوم التربوي الاسلامي الامام علي بن موسى الرضا (ع) في قوله :

((الصغائر من الذنوب طرق الى الكبائر ، ومن لم يخف الله في القليل لم يخفه في الكثير)) "١"

○ ○ ○

(١) عيون أخبار الرضا / ج ٢ ، ص ١٨٠ .

الذنب الصغير قد يصبح كبيرًا

قال علماء الأخلاق "١" : يمكن أن يصبح الذنب الصغير كبيرا في نظر الشرع ، اذا اتصف فاعله بأحد حالات ستة ، وهي كما يلي :

أولا : الاصرار والمواظبة على الصغيرة ، كما روي ذلك عن الامام محمد الباقر (ع) ، وهو يفسر قول الله تعالى :

((ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)) ، قال : الاصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ، ولا يحدث نفسه بتوبة ، فذلك (هو) الاصرار)) "٢"

وقال رسول الله (ص) ، في حديث متفق عليه بين المسلمين"٣" :

((لا صغيرة مع الاصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار))

والاصرار على المعصية الصغيرة نوعان :

اما اصرار فعلي عليها ، وهو المتمثل في المداومة على نوع

---

(١) منهم ابو حامد الغزالي في احياء الأحياء ، ومنهم الفيض الكاشاني في المحجة والحقائق ، وكذلك النراقي في جامع السعادات.

(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٣) ذكر ذلك صاحب الميزان ، وروى الحديث الكليني عن الصادق (ع) ، راجع الكافي ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

واحد من المعاصي الصغيرة بدون توبة ، كالنظر باستمرار الى المراة الأجنبية ـ مثلا ـ أو الاكثار من ارتكاب الصغائر بلا توبة ، وأما اصرار حكمي ، وهو العزم على اتيان الصغيرة مرة أخرى بعد الفراغ منها ، أما اذا فعل المعصية الصغيرة ، ولم يحدث نفسه بالتوبة بعد أن انتهى من فعلها ولم يعزم على العودة اليها ، فالظاهر انه ليس بحكم المصر عليها ، كما يفهم ذلك من كلام الامام الخميني حينما تعرض لبيان نوعي الاصرار على الصغيرة وتعريفها ، بقوله :

((الاصرار الموجب لدخول الصغيرة في الكبائر هو : المداومة والملازمة على المعصية من دون تخلل التوبة ، ولا يبعد أن يكون من الاصرار العزم على العودة الى المعصية بعد ارتكابها ، وان لم يعد اليها ...)) "١"

ولا يخفى ان تعريف الامام الخميني ـ حفظه الله ـ للاصرار الحكمي بالعزم على تلك الصغيرة التى ارتكبها المذنب ـ بعد الفراغ منها ـ ليس معناه انه لو كان عازما على صغيره غير التى ارتكبها لا يكون مصرا ، بل ان هذا من المصرين كذلك .

ويشمل الاصرار الحكمي من كان عازما مدة سنة ـ مثلا ـ على اقتراف صغيرة ـ كتقبيل امراة اجنبية ـ لكنه لم يقبلها لعدم تمكنه من ذلك .

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ١ ، ص ٢٧٥ .

وربما السر في اعتبار الصغيرة كبيرة ـ بسبب الاصرار ـ يعود الى أثر المعصية على النفس الانسانية ، لأن المعصية الصغيرة لا تترك أثرا كبيرا في القلب بارتكابها مرة واحدة أو مرتين ... بينما تصبح شديدة التأثير على النفس اذا تكررت فتتراكم آثارها الضعيفة فتحدث بالأخير ظلمة في القلب والنفس كما تترك مثل ذلك المعصية الكبيرة اذا فعلها الانسان مرة واحدة .

ثانيا : استصغار الذنوب ، قال أمير المؤمنين (ع) :

((أشد الذنوب مااستخف به صاحبه)) "١"

وعن الامام الكاظم (ع) ، قال :

((لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب فانّ قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا)) "٢"

وهناك روايات مستفيضه بهذا المضمون ، ويروى بهذا الصدد أن الله سبحانه أوحى الى بعض أنبيائه يقول :

((لا تنظر الى قلّة الهدية وانظر الى عظيم مهديها ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها)) "٣"

ثالثا : أن يغتر مرتكب الصغيرة بستر الله تعالى عليه وحلمه عنه وامهاله اياه ولا يدري بأن الله سبحانه لا يهمل بل يمهل مقتا

---

(١) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، رقم ٤٧٧

(٢) اصول الكافي /ج ٢ ، ص ٢٨٧ (٣) المحجة البيضاء ، ج ٧ ، ص ٥٩

ليزداد العبد بالامهال اثما وعدوانا ، ومن جملة أسباب هذا التهاون عن التوبة من الصغائر أن يرى المذنب نعم الله تعالى تترى عليه مع عصيانه له ، فيظن ان الله سبحانه غير غاضب على ارتكابه لهذه المعاصي الصغيرة ، فيأمن من مكر الله تعالى الذي لا يأمن من مكره الّا القوم الكافرون . ولا يدري هذا المسكين انه ربما يقع في حبائل استدراج الله تعالى له ، وهي أخطر حالات غضب الله تعالى على عبده المذنب . فقد سئل الامام الصادق (ع) عن الاستدراج، فقال :

((هو العبد يذنب الذنب فيملي له ، ويجدّد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب ، فهو مستدرج من حيث لا يعلم)) "١"

ويقول سماعة بن مهران ، سألت الامام الصادق (ع) عن قوله عزّوجل (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ، قال :

((هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب)) "٢"

وكان الامام الصادق عليه السلام يقول :

((كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه ، وكم من مستدرج بستر الله عليه ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه)) "٣"

---

(١) ، (٢) ، (٣) اصول الكافي/ ج ٢ ص ٤٥٢ .

ولهذا يحذرنا أمير المؤمنين (ع) من التهاون عن التوبة من المعاصي بسبب ستر الله تعالى علينا ، فيقول :

((الحذر الحذر ،فوالله لقد ستر حتى كأنه غفر)) "1"

رابعا : السرور بالصغيرة ، كمن ينظر الى فتاة أجنبية ويفرح من تمكنه على ذلك بدلا من أن يأسف ويندم على مخالفته هذه ، فان نفس هذه الحالة النفسية توجب صيرورة الصغيرة كبيرة ، لأنها تكشف عن تجرأ على الله سبحانه واستهزاء بأحكامه وهتك لحرماته ٠

وقيل انه كلما غلبت حلاوة المعصية الصغيرة فى نفس الانسان صعب عليه هجرها ، وعظم أثرها في تسويد قلبه ، فتكبر عند مولاه وخالقه جلّ ذكره"2"٠

خامسا : أن يرتكب الصغيرة بالخفاء ، ثم يخبر عنها أصدقائه ، كالذي يمارس بعض المحرمات الجنسية الصغيرة سرّا ثم يخبر أصدقائه بذلك ، فان مثل هذا قد اقترف أكثر من معصية في معصية واحدة ، فهو بالاضافة الى عصيانه ، فقد فضح نفسه وهتك ستر الله عليه ، ثم شجع أصدقائه على ارتكابها فى اخباره لهم عن لذتها مشيعا الفاحشة بينهم ، وبهذا تتحول معصيته الصغيرة الى كبيرة ٠ ((راجع الكبيره رقم ٥٥))

---

(١) نهج البلاغة / باب الحكم ، رقم ٢٩ ٠

(٢) لم أقف على نص كشاهد على هذه الحالة ٠

سادســــا : أن يكون المتجاهر بالصغيرة ذا موقع اجتماعي ويقتدى به ، كعالم الدين والمعلم والأب والأم والمربية ٠٠ الخ فـــان تجاهر هؤلاء بالصغيرة سيشجع من يقتدي بهم على ارتكابها اقتــداءا بهم ، وربما يتحول اقتراف الصغيرة عند المقتدين الى سنة تبقـــى آثارها بعد وفاة القدوة ،كما قال الله سبحانه ((**ونكتب ماقدمـــوا وآثارهم**))"١" ،ومعنى الآيه كما يفسرها الخبر انه ((**من سنّ سنّه سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها**)) ٠

ولا وجه لحصر هذا الكلام بالعلماء دون غيرهم ٠٠٠ كما فهمـــه الفيض الكاشاني والشيخ البهائي ومن تابعهما من المتأخرين ،كآيـــة الله البجنوردى"٢" ، فان هذا الحصر تخصيص لمفاد الآية والروايـــة بدون دليل ، وربما مبعثه هو حصر مفاد الآية والرواية بأخـــص مصاديقها وهو العالم الدينى لكثرة مايقتدى به ،ولكنـــه توهـــم ، لأن الأب والمربي والقائد مثله ، وعلى كل حال يبنغى على المعلميـــــن والقادة والعلماء والوعاظ والزهاد والآباء والأمهات والمربين والمربيات وكل من يقتدي الناس بسلوكه اجتناب الصغائر من الذنوب علانيه ـ على اقل التقادير ـ لكى يتجنبوا اغراء من يقتدى بهم بالمعصيه فيكونوا سـببا لسنة سيئة في المجتمع ٠

---

(١) يـــس / ١٢ ٠

(٢) راجع آراء هؤلاء الأعلام فى بحث التوبة ((الحقائق للكاشاني)) و((الأربعين للبهائي)) و ((القواعد الفقهية ج ٧)) للبجنوردي ٠

اجتناب الكبائر مكفِّر للصغائر

قال بعض الفقهاء بعدم وجوب التوبه من الصغائر لمن اجتنب الكبائر ، واستدلوا على ذلك بالآيه الصريحه التاليه :

((ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ...))

والواقع ان اجتناب الكبائر انما يكون مكفرا للصغائر بشروط :

أولها : أن لا تتصف الصغيرة باحدى الصفات الستة الماضية ، فان اتصافها بذلك يجعلها من الكبائر التى لا تغتفر الا بالتوبة المخلصة الصادقة .

ثانيها : أن تُجتنب الكبيرة مع القدرة والارادة على الاتيان بها ، كمن يتمكن من مواقعه امرأة محرمة عليه – مثلا – فيكف نفسه عن ذلك مقتصرا على لمسها والنظر اليها (١) ، أما اذا كان اجتنابه للكبيرة ناتجا عن خوف من شخص يراقبه أو عجز أو مانع آخر ، فلا يصلح ذلك لتكفير صغائره ، قال بهذا الشرط أبو حامد الغزالي وتابعه الفيض الكاشاني والشيخ النراقي ، ولم أقف على نص شرعي صريح يدل على وجاهة هذا الشرط ، بل ظاهر الآية ((ان تجتنبوا كبائر ماتنهون

(١) الامثله الواردة فى هذا الفصل نقلناها من كتاب المحجه البيضاء ((بحث التوبه)) .

عنه نكفر عنكم سيئاتكم ٠٠٠)) خلاف هذا الشرط ٠

ثالثهـــا : أن يكون محافظا على اداء الصلوات الخمس على الوجه الصحيح ، كما روي عن النبي (ص) ، انه قال :((**ان الصلوات كفارات لما بينهن ماجتنبت الكبائر**)) "١"،وجاء في حديث آخر عنه كذلك :((**ما من مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوئها وخشوعهـــا وركوعها الآ كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم يؤب كبيرة**)) "٢"

والروايات عن أهل البيت (ع) بهذا المعنى متظافرة جدا ، والمستفاد منها اعتبار اجتناب الكبائر واداء الصلاة المفروضة بشكـــل صحيح شرط واحد لا شرطين لأن النبي (ص) يقول ((**ان الصلـــوات كفارات لما بينهن ماجتنبت الكبائر**)) فالشرط الأول والثالث شــرط واحد لا شرطين ، خلافا لما ذهب اليه شيخنا البهائي رحمة الله عليه فانه كان يرى المحافظة على الصلوات الخمس وأدائها بشكل صحيـــح مكفر لنوع خاص من الذنوب الصغائر غير الذنوب التى تكفر باجتنـــاب الكبائر "٣" ، وهذا الكلام يتعارض ومفاد الروايتين المتقدمتين تماما ٠

ومن الغريب جدا أن الفيض الكاشاني والشيخ النراقي لـــم يتعرضا للشرط الثالث ، وهو اشتباه منهم ــ فيما أتصور ــ لان الشرط الأول بدون الثالث ناقص ٠

---

(١) ، (٢) الأربعين / ص٢٢ ٠
(٣) راجع رأيه في الأربعين ص/ ٢٢ ٠

شبهة واهية!

وقد يتصور البعض ان في قوله تعالى :((**ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما**)) اغراء بالمعصية لأن الاسلام حينما اعتبر الكبائر سببا للتكفير عن الصغائر فانه قد شجع بذلك على ارتكاب الذنوب الصغائر ٠

وهذا الكلام ليس واقعيا ولا معقولا ، فمن الواضح ان من يجتنب الكبائر خوفا من نار الله أو طمعا فى جنته ،أو حبا له وتعلقا به جل ذكره ـ سوف يكون من طريق أولى مجتنبا للصغائر التى لا قيمة لها عنده ، وهو يمتلك ارادة قوية صلبة استطاع بها أن يتحدى جميع مغريات الشيطان والحاح النفس الأمارة بالسوء حينما يدعوانه لارتكاب الكبائر ٠٠٠ وقد أثبتت تجارب المؤمنين المتقين ان من عصم نفسه عن ارتكاب الكبائر سوف لا يقدم على المعصية الصغيرة الآ خطأ أو نسيانا أو اشتباها أو اضطرار ٠ ومن هذا المنطلق نفهم الحكمه في حكم الاسلام بعدم وجوب التوبة على مرتكب الصغائر اذا كان مجتنبا للكبائر ٠٠ لأن مثل هذا الانسان التقى الورع لا يمكن أن يتعامل مع المعصية الصغيرة بملىء ارادته ورغبته ، وانما تفرض عليه الظروف

الضاغطة والأجواء الغامضة الوقوع في المعصية الصغيرة وهو مع ذلك غير راغب فيها ولا محب لها ٠

أسباب الوقوع في المعاصي

عندما نتساءل عن الدوافع التى تقف وراء ارتكاب الذنوب و الاسباب التي تغري الانسان بالمعصية وتدعوه الى ترك الطاعة ، نجدها كثيرة جدا ، فهي تختلف من ذنب الى ذنب ومن حالة الى أخرى ، وللاختصار لابد أن نتحدث عن الاسباب الرئيسية منها ،وهي أربع :

١ ـ فقدان الايمان بالله سبحانه : كما دللت على ذلك احصائيات علماء النفس والتربية في علم دراسة أسباب الجريمة في اوربا "١" ، فقد أثبتت هذه الاحصائيات ان أكثر مرتكبي حوادث الاجرام والخطايا العظام كانوا ممن ينقصهم الايمان الحقيقي بالله سبحانه وبالقيم الانسانية العليا ٠ مما يكشف على ان انطفاء جذوة الايمان بقوة غيبية عليا تراقب الانسان في السر والعلانية من أكبر أسباب الجريمة ٠

٢ ـ الجهل بفائدة القيم والتعاليم الاخلاقية والدينية ، وعدم

---

(١) راجع كتاب الطفل بين الوراثة والتربية ، ج١، المحاضرات الاولى

معرفة دورها في اصلاح النفس وسعادة المجتمع ، ويتفرع عن ذلك الجهل بخطر الذنوب وأثرها فى شقاء الفرد وانهيار المجتمع ، كما حدثنا الله سبحانه عن ذلك فى كتابه المجيد حينما أخبرنا عن أمم وشعوب قديمة قد كفرت بأنعم الله ورفضت هدي السماء بسبب جهلها بجدوى رسالات الانبياء وأهميتها فى تربية الذات وتنظيم الحياة ، فقال :

((**بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون**)) "١" .

وقال : ((**وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم ان تسمع الّا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون**)) "٢"

وقال : ((**قل انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون**)) "٣"

وبالمقابل نسمع ونقرأ ــ اليوم ــ وفي هذا العصر المادي عن بعض العلماء الماديين فى الغرب ممن أعلنوا عن ايمانهم بالله تعالى وبالقيم الدينية بعد أن توصلوا الى فائدة ذلك وأدركوا أهميته عن طريق البحث العلمي الموضوعي الذى هداهم للايمان ، فكشف لهم عن تطابق العلم مع الدين "٤" .

---

(١) الأنبياء / ٢٤ .
(٢) النحل / ٨٠ .
(٣) الأحقاف / ٢٣ .
(٤) للمزيد اقرأ كتاب(الله يتجلى في عصر العلم) و(العلم يدعو للايمان)

والخلاصة : ان العلم يقابل الجهل ، فكما ان الجهل بضرر الشيء يؤدي الى عدم الاحتراز منه ، فان العلم بضرره غالبا مايكون سببا لاجتنابه .

٣ ـ فقدان التربية الصالحة ، وهو من أبرز عوامل الجريمة والانحراف فقد يكون الانسان مؤمنا بالله سبحانه ، عالما بخطر الذنوب وأضرارها ، ولديه وضوح كامل عن آثارها السيئة على النفس والمجتمع، ولكنه مع ذلك يقع في المعصية لأنه يفقد التربية الصالحة التي هي أهم مقومات الصمود أمام مغريات الحياة والحاح الشهوات ، فالاطلاع على المفاهيم الاسلامية والتعرف عليها غير كاف في ردع الانسان عن المعاصي ، ويجب أن نفرق هنا بين فهم الاسلام وبين التربّي بأخلاقه وقيّمه . فما أكثر الذين يحسنون الكلام عن الأسلام وأحكامه ويبدعون في تنظير الافكار والمفاهيم الاسلامية وهم أبعد الناس عن الالتزام بأحكام الدين فى واقعهم العملي .

والتربية الصالحة هي العملية الهادفة التي تترجم قضية الايمان بالله تعالى والعقيدة الاسلامية الى سلوك نظيف ومثالي ، وتحول التفكير النظري بخطورة الذنب الى طبع محكم وسجية طيبة في سلوك الفرد والأمة .

٤ ـ فقدان النظام الاجتماعي العادل : فللانسان ـ كما نعلم ـ حاجاته الطبيعية والضرورية في الحياة ، من المأكل والمشرب والمسكن والجنس وغير ذلك من مطاليب الحياة الملحة والتى يبذل من

أجل الحصول عليها جهودا شاقة ومضنية ، فان حالت دون توفرها الحواجز كما يحصل اليوم لأكثر الناس في ظل الانظمة الجائرة الظالمة فقد يلجأ الانسان عند ذلك الى أساليب ملتوية لكي يشبع حاجاته ، فيسرق ويزني ويقتل ويكذب ويحتال ويغش ... وقد لا تستطيع حتى التربية الصالحة أن تقف حاجزا أمام جوعة الغرائز ، ونداء الشهوات المحرمة اذا لم تلبى مطاليبها الملحة والضرورية بطريق مشروع ، فالانسان رهن غرائزه — كما يقول بعض علماء النفس ومن هنا نفهم معنى كلمة الامام علي (ع) المشهورة ((**كاد الفقر أن يكون كفرا**))

كيفَ عالج الاسلام مشكلة الذنبْ ؟

وبعد أن تحدثنا عن الذنب وآثاره السيئة العامة وأنواعه ، وأسباب الوقوع فيه ، نواجه — الآن — وبشكل منطقي السؤال التالي :

كيف يعالج الاسلام مشكلة الاقدام على المعصية ، وماهي طريقته الخاصة للقضاء على أسبابها ومصادرها)؟

ونجيب : بأن الاسلام طرح لمواجهه مشكلة الاقدام على المعاصي خطتين تربويتين ، خطة ((وقائية)) وأخرى ((علاجية)) ، ووضع لكل من الخطتين أساليبها التربوية الخاصة بها من أجل القضاء على ظاهرة الاقدام على المعصية والجريمة ، ايمانا منه بضرورة القضاء

الحاسم والشامل على هذه الظاهرة المعقدة باعتبارها من أخطر ما يواجهه الانسان والمجتمع من مشاكل في الحياة ٠

اولا : الخطّة الوقائية

وهي الخطة الشاملة التى وضعها الاسلام لتهيئة الأجواء التربوية الصالحة للفرد والمجتمع وابعادهما عن جميع أسباب الانحراف وقد حددها الاسلام في ثلاثة أساليب رئيسية وهي :

١ ـ تربية الدوافع الذاتية للانسان وتقوية الرادع الداخلي الذى يصده عن اقتراف المعاصي وذلك عن طريق تقوية مشاعرالايمان بالله تعالى واليوم الآخر فى ضميره ووجدانه ، فان الاحساس الذاتى الدائم بالرقابة الغيبية التى تراقب الانسان فى السر والعلانية ، والخوف من حساب الله سبحانه ، وعقابه الصارم يوم القيامة يعتبر من أهم العوامل الذاتية التى تصد الانسان من السقوط أمام مغريات الشهوات المنحرفة ودواعي المعصية ، كما أكد ذلك علم الأخلاق وعلم النفس التربوي ٠

٢ ـ تهيئة الأجواء التربوية الصالحة للفرد المسلم في داخل ((الاسرة)) و ((المجتمع)) و ((المدرسة)) ، ومن الطبيعي أن يكون أبناء المجتمع المسلم الذي يلتزم بمبادىء الاسلام التربوية ، وقيم

الدين الأخلاقية أبعد الناس عن أجواء الرذيلة وأسباب المعصية .

٣ ـ النظام الاجتماعي والسياسي العادل الذى يحقق للانسان حياة اقتصادية سعيدة وعيشا موفورا عزيزا كريما ، فلا يتركه يعاني من آلام الفقر وضغوط الحياة والحاح الشهوات المحرمة ، بل يوفر له كل حاجاته الضرورية بطرق نظيفة ومشروعة ، ولا يمكن أن نتصور مثل هذا النظام العادل الّا في ظل حكومة اسلامية نطبق أحكام الاسلام بشكل كامل وشامل .

ومن البديهي أن هذه الأساليب الوقائية لا يمكن أن تؤدي دورها التربوي بشكل صحيح وناجح في معالجة ظاهرة الاقدام على الذنوب والقضاء على أسبابها اذا كانت منفصلة عن بعضها ، فلكي يكتب لهذه الأساليب الوقائية النجاح في مهامّها التربوية على الصعيد الفردي والاجتماعي ، لا بدّ من أن تعمل مترابطة فى ظل نظام اسلامي حاكم ، وبهذه الطرق الثلاثة يقضي الاسلام على جميع العوامل التي تمهّد لصنع الجريمة والوقوع في شرك المعاصي .

ثانيا : الخطة العلاجيّة

وهي التي وضعها الاسلام لمعالجة مشكلة الانحراف بعد أن

يتورط الانسان بالمعصية والجريمة ، وذلك بالاعتماد على أساليب رئيسية أربعة ، وهي كما يلي :

١ ـ العقاب الالهي : ونقصد به عقاب الله تعالى للعاصين من عباده ـ في الدنيا **قبل الآخرة** ـ لغرض صدهم عن المعاصي ، وتذكيرهم برقابته الدقيقة لهم ، وبعض الأحيان تعتبر النتائج السيئة للذنوب كقلة الرزق ونزول البلاء التي يلاقيها المذنبون من جملة الأساليب التربوية العلاجية التي يبتلى الله سبحانه عباده بها لصدهم عن المحرمات وتربيتهم على الطاعات .

قال الله سبحانه متحدثا عن هذا اللون من التربية الالهية للمذنبين فى الدنيا :

((**وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون**)) "١"

وقال : ((**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**)) "٢"

وقال : ((**لنذيقهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون**)) "٣"

ومن الواضح ان رجوع العباد الى الله سبحانه لا يكون الّا بالتوبة ولا يقع ذلك منهم الّا فى الدنيا لأن المذنب بعد الممات ينسد

---

(١) الزخرف / ٤٨ .
(٢) النور / ٦٣ .
(٣) السجده / ٢١ .

بوجهه باب التوبة كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :

((قال ربّ ارجعوني لعلي أعمل صالحافيما تركت، كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون)) "١"

ومما يدلل على وجود مثل هذا العقاب الرباني للعاصين في الدنيا من أجل ردعهم ، ماروي عن الامام الصادق (ع) انه قال :

((اذا أراد الله عزّوجل بعبد خيرا عجّل له عقوبته في الدنيا ، واذا أراد بعبده سوءا أمسك عليه ذنوبه حتى يوافى بها يوم القيامه)) "٢"

ولكن عندما يطغى الناس في عصيان الله تعالى ، ولا ينفع معهم عقابه وتذكيره لهم ، فانه عند ذلك يشدّد عقابه عليهم في الدنيا ويذيقهم عذابا أليما في الآخرة ، كما قال سبحانه :

((فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم عذابا أليما في الدنيا والآخرة ، ومالهم في الأرض من ولي ولا نصير)) "٣"

٢ ـ العقاب الاجتماعي ، وهو الذي يلقاه مرتكب المعاصي من الرقابة الاجتماعية الصارمة في مجتمع التوحيد .

---

(١) المؤمنون / ١٠٠ .

(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٤٥ .

(٣) التوبة / ٧٤ .

والرقابة الاجتماعية في الاسلام مسؤولية شرعية يتحملها كل مسلم من أبناء المجتمع الاسلامي ، فاذا وجدوا بينهم من يعمل بالمعاصي ويرتكب السيئات ، وجب عليهم نهيه وزجره عن ذلك باعنف الاساليب وأكثرها تأثيرا وردعا له ، قال رسول الله (ص) :

((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان))

وتشمل هذه المسؤولية مواجهة المنكر في المراكز الاجتماعية الثلاث ((الاسرة)) و ((المجتمع)) و ((الدولة)) ، ومما دلّ على وجوبها في داخل الاسرة حديث الامام الصادق (ع) حينما سئل عن تفسير الآيه ((يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ...)) ، فقالوا له : كيف نقى أهلنا؟ ، قال :

((تأمرونهم وتنهونهم)) "١"

ومما دل على وجوب الرقابة الاجتماعية في داخل المجتمع الاسلامي ماروي عن الامام الحسن عن جده رسول الله (ص) ، قال :

((لا يحل لعين مؤمنة ترى الله يعصى فتطرف حتى تغيره)) "٢"

وفي حديث آخر عنه (ص) ، قال :

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤١٨ .

(٢) الوسائل / ج ١١ ، ص ٣٩٩ .

((ان المعصية اذا عمل بها العبد سرا لم يضر الّا عاملها ، فاذا عمل بها علانية ولم يغيّر عليه أضرت بالعامة)) "١"

ومما دلّ على وجوب الرقابة الاجتماعية على السلطه الاسلاميه لمنعها من الانحراف حديث مشهور لرسول الله (ص) قال فيه :

((ان أفضل الجهاد ، كلمة عدل عند امام جائر)) "٢"

وفي حديث آخر يرويه الامام الحسين سيد الشهداء عن جده رسول الله (ص) قال فيه :

((أيها الناس ان رسول الله قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرام الله ناكثا لعهده مخالفا لسنه رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولاقول ، كان حقا على الله أن يدخله مدخله)) "٣"

ولم يترك الاسلام هذه المسؤولية الاجتماعية بدون أن يضع لها حدودا تهذبها وتوجهها الوجهة الصحيحة ، بل وضع لها أحكاما خاصة بها وبحثها فقهاء الاسلام في باب ((الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص٤٠٧ ٠
(٢) الوسائل / ج ١١ ، ص٤٠٠ ٠
(٣) الكامل في التاريخ / ج ٤ ، ص٤٨ ٠

عن المنكر)) .

وضرب لنا الاسلام في مجتمع الرسول القائد (ص) أروع الأمثلة عن مستوى الانضباط الاجتماعي والالتزام الدقيق من قبل المسلمين بهذه المسؤولية الشرعية العامة حينما خرج رسول الله (ص) الى القتال في معركه تبوك ، وقد تخلف عنه قوم من المنافقين ونفر من المؤمنين كذلك ، ولكن المؤمنين التحقوا به بعد ذلك وبقي في المدينة ثلاثة نفر منهم ، وهم ((كعب بن مالك الشاعر ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية الرافعي)) ، ولنترك الكلام لكعب نفسه يحدثنا عن هذه القصة الرائعة ، **قال كعب :**

((ماكنت قط أقوى مني في ذلك الوقت الذي خرج فيه رسول الله (ص) الى تبوك ، وما اجتمعت لي راحلتان قط الآ في ذلك اليوم ، وكنت أقول : أخرج غدا أو بعد غد ، وتوانيت ، وثقلت بعد خروج النبى (ص) أياما أدخل الى السوق ولا اقضي حاجة ، فلقيت هلال بن امية ، ومرارة بن الربيع وكانا قد تخلفا أيضا فتوافقنا أن نبكر الى السوق ، فبكرنا ولم نقض حاجة ، فما زلنا نقول : نخرج غدا ، أو بعد غد ، حتى بلغنا اقبال رسول الله (ص) فندمنا .. فلما وافى رسول الله (ص) استقبلناه تهنئه السلامة فسلمنا عليه ، فلم يردّ علينا

السلام وأعرض عنا ، وسلمنا على اخواننا ، فلم يردّوا علينا السلام ، فبلغ ذلك أهلونا فقطعوا الكلام معنا ، وكنا نحضر المسجد فلا يسلم علينا أحد ولا يكلمنا ، فجائت نساؤنا الى رسول الله (ص) فقلن : قد بلغنا سخطك على أزواجنا !! أفنعتزلهم ؟ ! ، فقال رسول الله (ص)لا تعتزلنهم ولكن لا يقربوكن)).

فلما رأى كعب بن مالك وصاحباه ماقد حلّ بهم قالوا: ما يقعدنا بالمدينه ولا يكلمنا رسول الله (ص) ولا اخواننا ولا أهلونا ؟ فهلموا نخرج الى هذا الجبل فلا نزال فيه حتى يتوب الله تعالى علينا أو نموت)) فخرجوا الى ((ذباب)) وهو من جبال المدينة، فكانوا يصومون النهار ويحيون الليل بالعبادة ، وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم ولا يكلمونهم ، فبقوا على هذا أياما كثيرة يبكون في الليل والنهار ويدعون الله سبحانه ان يغفر لهم ، فلما طال عليهم الأمر ، قال لهم كعب : ياقوم قد سخط الله علينا ورسوله ، وقد سخط علينا اخواننا وأهلونا ، فلا يكلمنا أحد منهم، فلم لا يسخط بعضنا على بعض ، فتفرقوا في الجبل

وحلفوا أن لا يكلم أحد منهم صاحبه ، حتى يموت أو يتوب الله عليه ، فبقوا على ذلك ثلاثة أيام ، وكل واحد منهم في ناحية من الجبل لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلمه ، فلما كانت الليلة الثالثة ورسول الله (ص) في بيت أم سلمة نزلت توبتهم على النبى (ص) في قول الله تعالى : (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤف رحيم ، وعلى الثلاثه الذين خلّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أنّلا ملجأ من الله الّا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم)) "١"

فهرع المؤمنون الى جبل ((ذباب)) فرحين يحملون البشرى لكعب وصاحبيه بقبول الله تعالى توبتهم فلما وصلوا اليهم وجدوهم في حالة من الذوبان في طاعة الله والتسليم له مالا يتصف بها الّا الأولياء والمقربون ، فلما بشروهم جهش الثلاثة بالبكاء وفاضت دموعهم حياء من الله تعالى وسجدوا شكرا له على جميل عفوه وعظيم منه عليهم ٠

---

(١) التوبة / ١١٧ ــ ١١٨ ٠

وبهذه القصة[1] التي صورت لنا أثر الايمان بالله في الجماعة الاسلامية يتجلى بشكل واضح دور الرقابة الاجتماعية والعقاب الجماعي في ردع العاصين لأوامر الله تعالى وأثر ذلك في تربية المذنبين وعودتهم من جديد الى الخط الاسلامي الصحيح والسلوك الانساني النظيف .

٣ ـ رقابة الدولة الاسلامية الحاكمة ، التى تترجم موقفها السلبي من المجرمين والمذنبين الخارجين عن حدود الله تعالى في ((العقاب القضائي)) وهو عقاب صارم وشديد يعينه ((الحاكم المسلم العادل)) بحق مرتكبي الذنوب والجرائم في المجتمع الاسلامي وفقا لاصول اثبات الجريمة في القضاء الاسلامي ، وقد تحدث عن ذلك الفقهاء ، مطولا في باب ((الحدود والديات والقصاص والتعزيرات))

وقال الامام الخميني وهو بصدد الحديث عن عقوبة مرتكب الكبائر :

((ان كل من ترك واجبا أو ارتكب حراما فللامام (ع) ونائبه تعزيره بشرط أن يكون من الكبائر))[2]

٤ ـ التوبة ، وهي باب آخر من أبواب الاصلاح ومكافحة المعصية ، فتحها الله لعباده لانقاذهم من التمادي في المعصية والجريمة ، ومن حالة القنوط واليأس من رحمه الله تعالى ، ولوضع

---

(١) راجع القصة في الميزان / ج ٩ ، ص ٣١ ، وفي ظلال القرآن ج ٤ ، ص ٣٣٥ ومابعدها .

(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٧٧ .

حد لانحراف المذنبين واجرام العاصين ولمساعدتهم على العودة الى حياة الطهر والاستقامة)) "١" ، قال الله سبحانه وتعالى :

((**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم**)) "٢"

هذه هي أهم الطرق والأساليب العلاجية التى رسمها الاسلام لمكافحة الجرائم والمعاصي والقضاء على أضرارها فى النفس والمجتمع، والتوبة هي من جملة الوسائل العلاجية التي يعتمدها دين التوحيد للقضاء على مساوئ الذنوب وأضرارها ·

ولم تكن التوبة علاجا سطحيا أو تنفيسا وقتيا للمذنبين أو المجرمين ، وانما هي علاج جذرى وتغيير أساسي في حياة العصاة والجناة على الصعيد الفردي والاجتماعي ··· علاج له أساليبه الخاصة وطرقه التربوية المتعددة التى رسم معالمها دين القرآن الكامل من أجل أن يقضي على مظاهر الاجرام والمعصية ويطهر الغارقين فيالآثام والمدمنين على الخطايا وينقذهم من خطر التمرد على الله تعالى ،فمن الضروري اذن أن نتعرف بشكل واضح ومفصل على اطروحة الاسلام التربوية التي وضعها للتائبين من العصاة والمجرمين ·

---

(١) المعصية والشقاء / ص ٣٤ ((بتصرف)) ·
(٢) الزمر / ٥٣ ·

الفصل الثاني

التوبة
في التشريع الاسلامي

التوبة لغةً وشرعًا

التوبة لغة تعني : الرجوع والانابة ، يقال : تاب فلان أي رجع عن ذنبه ، فهو تائب "١" وهي تنسب للعبد تارة ، ولله سبحانه تارة أخرى ، وعند انتسابها للعبد يقصد بها رجوعه الى ربه — عن المعصية الى الطاعة — نادما مستغفرا ذنبه ، أما انتسابها لله سبحانه فالمراد به رجوعه — جل ذكره — على عبده من العقوبه الى العفو واللطف والتفضل عليه بقبول توبته والصفح عن زلته ، وقد ذكر القرآن الكريم كلا المعنيين للتوبة في آيات متعددة منها قوله تعالى :

((لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار .. ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم)) "٢"

أما معنى التوبة شرعا فهي — كما عرفها الشيخ الانصاري — ((الرجوع الى صراط الله المستقيم بعد الانحراف عنه)) "٣" ، وهي عكس الاصرار على الذنب والجريمة ، ومن هذا المنطلق عرفها علماء الاخلاق بقولهم ((هي ترك المعاصي في الحال والعزم على الابتعاد

---

(١) المعجم الوسيط / ج ١ ، ماده ((توب)) .
(٢) التوبة / ١١٧ — ١١٨ .
(٣) المكاسب / ص ٣٣٥ .

عنها في الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير في حق الله وحقوق الآخرين)) ، وقال الامام أمير المؤمنين : ((التوبة ندم بالقلب ، واستغفار باللسان والقصد على أن لا يعود)) "١" ، وهذا التعريف أفضل وأكمل بيان جامع وبليغ لحقيقة التوبة ، وعليه المدار في البحث العلمي والفقهي والأخلاقي في دراسة العلماء لموضوع التوبة "٢" ، وعلى ضوء هذا التعريف الجامع لا يصح اعتبار الندم عنوانا تاما لحقيقة التوبة ، ومن فعل ذلك من علماء الاخلاق وقع في خطأ كبير لأن الندم هو أحد المراحل النفسية للتائب بل هو أولها وتأتى بعده مرحلة ((ترك المعاصي)) التي يصبح بها الانسان حقا تائبا ثم ((العزم على عدم العود الى المعصية)) التي تكشف عن الاخلاص في التوبة ، فالندم وحده اذا ليس هو التوبة الكاملة على حقيقتها ، بل هو دافع من دوافعها ومقوم من مقوماتها ، أما قول النبي (ص) ((الندم توبه)) "٣" فهو محمول على حث المذنبين وتشجيعهم على التوبة ، وان كان بأضعف الحالات التى هي الندم وحده دون العزم على الترك ، فهذه الحاله

---

(١) تحف العقول ، ص١٤٩ .

(٢) وعلى ضوء هذا النص ونصوص أخرى مطابقة له في الكتاب وعن المعصومين (ع) تسائل الشيخ الانصاري هل الاستغفار باللسان جزء واجبا في التوبة أم لا ؟ وكذلك فعل مثله السيد البجنوردى في القواعد الفقهية ، رسالة التوبة ج ٧ ، .. والظاهر من كلماتهم انه لا يعتبر جزءا واجبا منها .. راجع المكاسب ، ص ٣٣٥ .

(٣) المحجة البيضاء ، ج ٧ ، بحث التوبة ، ص ٥ .

من الانابة الى الله تعالى مع ضعفها فهي مقبولة ، لأنها من المؤمل أن تؤدي بالمذنبين النادمين الى العزم الاقوى وهو التوبة الحقيقية التي من ورائها النية المخلصة والارادة الصلبة ٠

الخطيئة والتوبة في الاسلام

قال الله سبحانه :

((وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مماكانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا بآياتنا اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) "١"

من هذا اليوم الذي كبى فيه أبو البشرية ((آدم)) عليه السلام

---

(١) البقرة / ٣٥ ـ ٣٩ ٠

عند أول امتحان واجهه في حياته "١" تنطلق الأديان السماوية في طرح وتحديد تصوراتها الدينية حول فكرة الخطيئة والتوبة ، ولا يوجد في أصل الديانات السماوية أي اختلاف في فهم الخطيئة والتوبة ، وانما جاء الاختلاف بين الاسلام والديانتين الموسوية والعيسوية من تحريف ومتاجرة الرهبان والقساوسة بالديانتين المذكورتين ، فالدين المسيحي المحرف – مثلا – يلخص فهمه لفكرة ((الخطيئة والتوبة)) في اعتبار المسيح (ع) ابنا لله – تعالى عما يصفون – وقد صلبه سبحانه تخليصا للبشرية من خطيئة أبيهم آدم (ع) التي بقيت تلاحقهم جميعا حتى كفر عنهم عيسى بن مريم (ع) ، وعلى أساس هذه النظرة الشوهاء لمفهومي ((الخطيئة والتوبة)) التي أضفت عليها الكنيسة طابع القداسة أخذت تتعامل مع المذنبين من أنصارها فتوجب على كل مذنب منهم الوقوف بين يدي القسيس ممثل الله في الأرض – على حد زعمهم – ليعترف له بكل جرائمه التي ارتكبها سرا ليمنحه حق التوبة بعد أن يجري عليه مراسم دينية وغسل خاص في احدى زوايا الكنيسة .

---

(١) وللامامية في معصية آدم أقوال كثيرة كلها تذهب الى تنزيهه من المعصية المتعارفة ، وقد استعرض العلامة الطباطبائي جملة منها في ميزانه ومنها ما رواه عن مولانا الامام الرضا (ع) في رده على محمد بن الجهم في مجلس المأمون حيث قال له : ((... أما قوله " **وعصى آدم ربه فغوى** " فان الله عزوجل خلق آدم حجه في أرضه وخليفة في بلاده لم يخلقه للجنة ، وكانت المعصية من آدم في الجنه لا في الأرض لتتم مقادير أمر الله عزوجل ، فلما أهبط الى الأرض وجعل حجة وخليفة

وقد استغل رجال الدين المسيحيين فكرة ((الخطيئة والتوبة)) استغلالا بشعا من أجل ارواء شهواتهم المكبوتة داخل أقبية الكنائس والدير ، فأخذوا عن طريق تطهير المذنبين من خطاياهم يرتكبون أفضع الجرائم الجنسية على أعتاب حوض التوبة ، وهم يجرون مراسيم الغسل الخاصة بالمذنبين التائبين من الرجال والنساء ، وسخروا كذلك فكرة التوبة لاشباع جشعهم المادي واطماعهم الدنيوية ،فباعوا باسمها صكوك الغفران على المسيحيين بأغلى الاثمان بحجه ان من لم يمتلك منها صكا لا يقبل الله توبته ولا يشم ريح الجنة ٠

وعندما أرسل الله سبحانه رسالته الى خاتم أنبيائه محمد (ص) أعلن بصراحه انتهاء دور الرسالات السماوية التى سبقت رسالةالاسلام، وأمر جميع أصحاب الديانات السابقة بالتعبد لله سبحانه بالدين الاسلامي والالتزام بكل قوانينه ، فقال :

((ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين)) "١"

وحينما جائت رسالة الاسلام الكاملة الخالدة نسفت كل التصورات الموحولة الساقطة التي اختلقتها الاسرائيليات حول فكرة الخطيئة

= عصم بقوله عزّوجل :((ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين)) الحديث ــ الميزان / ج ١ ، ص ١٤٥ ، طبعة لبنان ٠

(١) آل عمران / ٨٥ ٠

والتوبة ، وأول خطوة قام بها القرآن الكريم بهذا الشأن ، انه بـــدأ بفضح أساليب المتاجرين بالدين والقيم الالهية من رجال الديانتيـن اليهودية والمسيحية الذين كتموا آيات التورات والانجيل الصحيحـة ، ونبذوها وراء ظهورهم ، وحرّفوا بعضها من أجل أن يشتروا بها ثمنـا قليلا على حد تعبير القرآن الذي هاجمهم بقوله :

((واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّـه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا بـه ثمنا قليلا فبئس ما يشترون)) "١"

وقال : **((ياأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيـل الله)) "٢"**

ثم أعلن الاسلام بوضوح انه ليس هناك معصية باقية على آدم من خطيئته الاولى بعد أن تلقى ((من ربه كلمات فتاب عليه)) ، وليـس هناك خطيئة موروثة أو مفروضة على أبناء آدم قبل مولدهم يتحملـون مسؤوليتها في طول حياتهم ويلاحقهم بسببها الشعور الدائم بالذنـب ان لم يتوبوا منها ـ كما تقول المسيحية المحرفة ـ فمعصية آدم معصية شخصيه ، وهو وحده يتحمل مسؤوليه الخلاص منها كما فعل ذلك بالتوبـه المباشرة ، وهكذا كل واحد من أبناء آدم يتحمل تبعات ذنوبه بنفسـه

---

(١) آل عمران / ١٨٧ .
(٢) التوبة / ٣٤ .

ولا يتحملها أحد غيره ، كما يقرر ذلك القرآن الكريم :

((ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما)) "١"

فلاداعي اذن أن يكون المسيح فداءا لتلك الخطيئة التي وقع بها أبو البشرية آدم ، مادام هو الذى ارتكبها — لا المسيح — وقد تاب منها وقبلت توبته .. وطريق التوبة في دين الاسلام دائما مفتوح أمام المذنبين الراجعين الى الله تعالى :

((ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما)) "٢"

فدين التوحيد يعلن — في هذه الآية — عن فتح باب التوبة لعامة المذنبين من أبناء آدم ، فلا يخصص قبولها بطبقة من المذنبين دون أخرى ،سواء كانت هذه الطبقة تمثل رجال الدين أو تمثل الرأسماليين ، أوغيرهم ، كما لا يحدد الاسلام قبول التوبة بمكان دون آخر ، فالتوبة مقبولة لديه سواء أعلنها المذنب في البيت أو في الشارع أو في المسجد ، في أثناء الأكل أو في حالة العبادة ، المهم أن تتصف بالشروط الشرعية المطلوبة ،وليس من شروط قبولها اعلانها أمام رجال الدين فليس في المجتمع الاسلامى رجال دين ، بل يوجد علماء في الدين ، وبامكان كل مسلم أن يصبح عالما باحكام الدين ... فلا يوجد

---

(١) النساء / ١١١ .

(٢) النساء / ١١٠ .

في دين التوحيد من يمثل الله في الارض ، حتى لو كان من علماء الدين ، ومهما بلغت درجه علمه وتقواه ونزاهته ، فلاداعي اذن أن يعترف المذنب أمام أحد من الناس ، بل لقد حرّم الاسلام على المذنبين فضح أنفسهم والتحدث عن ذنوبهم علانية للآخرين ، فان ذلك يعتبر هتكا لستر الله سبحانه عليهم ، وقد أوضح ذلك رسول الله (ص) بقوله :

((المستتر بالحسنة يعدل سبعين حسنة ، والمذيع بالسيئه مخذول والمستتر بها مغفور له)) "١"

ومن هذا المنطلق نصح الاسلام المذنبين التائبين بالتستر على خطاياهم وآثامهم وأن لا يظهروها للاخرين حتى لو كان بهدف التطهر من الذنوب . وينقل بهذا الصدد أن رجلا من المسلمين جاء الى النبي (ص) معترفا أمامه بما ارتكبه من جريمة الزنا طالبا منه اقامه الحد عليه ليطهره من تبعات خطيئته هذه ، فتألم الرسول (ص) من هذا التصرف وقال : ((لو استتر ثم تاب كان خيرا له)) "٢"

ويتعدى الاسلام حدود الحفاظ على كرامة الفرد ، فيعلن حرمة اشاعة الفساد في المجتمع من أجل الحفاظ على كرامته وقيمه ونزاهته ، ومن هنا ندد بمن يسلط الاضواء على عيوب الناس ويكشف عن عوراتهم معتبرا هذا العمل من جملة أسباب اشاعة الفساد والفاحشة في أوساط

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص٤٢٨ .
(٢) الوسائل ، ج ١٨ ، ص٣٢٨ .

المجتمع وهو من أكبر المحرمات العامة ، وكان النبي (ص) يقول :

((لا تطلبوا عثرات المؤمنين ، فان من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثراته ، ومن تتبع الله عثراته يفضحه ولو في جوف بيته)) "١"

وكان مما كتبه الامام علي (ع) لواليه على مصر (الاشتر النخعي) قوله :

((وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس ، فان فى الناس عيوبا الوالي أحق من سترها ، فلاتكشفنّ عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهيرها ماظهر لك ، والله يحكم على ماغاب عنك فاستر العورة مااستطعت يستر الله منك ماتحب ستره من رعيتك ...)) "٢"

وكان الامام الصادق (ع) يقول لتلامذته :

((من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدي عورة سترها الله فنحوه)) "٣"

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٣٥٥ .
(٢) نهج البلاغة / ص ٣٢٩ ـ صبحي الصالح .
(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

متى يعتبر الانسان مُذنبًا ؟

ومع كل التسامح الذي ذكرناه في تعامل الاسلام مع المذنبين، فانه مع ذلك لا يعتبر الانسان مذنبا يستحق العقوبة الّا اذا توفرت فيه أربع صفات وشروط رئيسية حين اقدامه على المعصية أو الجريمة ، والشروط هي كما يلي "١" :

الشرط الأول : أن يكون المذنب قد بلغ سن التكليف الشرعي فاذا أقدم على المعصية قبل ذلك فلا يعد مذنبا ، لأنه غير مخاطب بالأحكام الشرعية حسب تعبير الفقهاء ، نعم قد يتحمل – في الدنيا – بعض الأحيان مسؤلية ما ارتكبه من جرم أو اعتداء على حقوق الناس كما يقرر ذلك القضاء الاسلامى الذى روعيت في أحكامه وقوانينه مصلحة حفظ النظام الاجتماعي وتربية الفرد والمجتمع ·

الشرط الثاني : أن يكون المذنب عالما بحرمة ما ارتكبه من جرم وما اقترفه من معصية ، أما اذا كان ناسيا أو مخطئا أو مشتبها أو جاهلا ، وكان جهله من غير تقصير ولا اهمال فلا يعتبر مذنبا شرعا ولا يحاسبه الله تعالى يوم القيامة على فعله هذا ، لأن ذلك خلاف قاعدة اللطف

---

(١) هذه الشروط لم تبحث مستقلة ، وانما بحثت في أبواب شتى وفي مناسبات مختلفة ، في الفقه الاسلامي ·

بعباده ، والتي هي من صفاته الكمالية ـ جل ذكره ـ ((**وهو اللطيف الخبير**)) "١". نعم قد تناله بعض العقوبات القانونية في الدنيـــا انطلاقا من المصلحة الاسلامية التي أشرنا اليها في الشرط الأول ٠

الشرط الثالث : أن يكون المذنب عاقلا حين اقدامه علـــى المعصية ، وقد ارتكبها بكامل وعيه متوجها الى ضررها قاصدا فعلهـا ، وهو مايعبر عنه فى القانون الوضعي ارتكاب الجريمة مع سبق الاصرار٠

وبهذا الشرط يسقط العقاب عن المجنون وماشابهه والمكـره ومايلحق به ، لأن الأول يفتقر الى العقل ، والثاني لم يكن قاصـــدا المعصية ، بل لم يقدم عليها بملىء ارادته ٠

الشرط الرابع : أن لا يكون المذنب مضطرا الى ارتكاب المعصية والتلبس بالجريمة ((**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه**)) "٢" ٠

ولهذا لا تقطع يد السارق اذا سرق من أجل دفع جوعته "٣" ، ولا يقام الحد على من شرب الخمر لحفظ نفسه من هلاك العطش أو مـن مرض شديد "٤" ٠

فاذا تمت هذه الشروط في مرتكب الجرم وقت تلبسه به يصبح حينئذ مذنبا من جهة شرعية ، وتجب عليه المبادرة للتوبة ٠

---

(١) الملك / ١٤ ٠
(٢) البقرة / ١٧٣ ٠
(٣) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٨٢ ٠
(٤) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٧٩ ٠

ويستدل فقهيا على ضرورة توفر هذه الشروط فيمن يسمى عاصيا بالنصوص الشرعية المعتبرة ، والتي منها قوله سبحانه :

((ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقه لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا))"١"

وقوله سبحانه : ((انما حرم عليكم الميته والدم ولحم الخنزير ؟ ما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم)) "٢"

وقوله تعالى : ((ومن كفر بالله من بعد ايمانه الّا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم)) "٣"

وروي عن أهل البيت عليهم السلام أحاديث كثيرة تشير الى هذه الشروط ، وأهمها ماورد عن رسول الله (ص) فى حديث الرفع الذى قال فيه : ((رفع عن أمتي أربع خصال : خطأوها ونسيانها وما أكرهوا عليه ، ومالم يطيقوا ، وذلك قول الله عزوجل : (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا

---

(١) البقرة / ٢٨٦ .
(٢) البقرة / ١٧٣ .
(٣) النمل / ١٠٦ .

تحملنا مالا طاقة لنا به) ، وقوله (الّا من أكـره وقلبه مطمئن بالايمان)) "١"

وفي حديث آخر عن رسول الله (ص) جاء فيه :

((وضع عن أمتي تسع خصال : الخطأ والنسيان ومالا يعلمون ومالا يطيقون وما اضطرّوا اليه ، وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق والحسد مالم يظهر بلسان أو يد)) "٢"

وجوب التوبة على المذنبين

اذا أقدم الانسان على المعصية ، وكان بالغا عاقلا عالما بحرمة ما رتكبه غير مضطر اليه ولا مجبور عليه ... أي أقدم على الحرمة في ظرف كانت تتوفر فيه جميع الشروط التى ذكرناها سابقا ... يعتبر حينئذ عاصيا وتصبح التوبة واجبة عليه بدليلين :

الأول : الدليل الشرعي : وهو المستفاد من النصوص الشرعية ، فقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على وجوب التوبة على المذنبين ، وسنذكر هنا جملة من هذه الآيات المباركة .

---

(١) الكافي / ج ٢ ، ص٤٦٢ ــ ٤٦٣ .
(٢) نفس المصدر السابق .

قال الله سبحانه :

((... وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)) "١"

((ياأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ..)) "٢"

وهاتان الآيتان يظهر منهما توجيه الخطاب الى المذنبين من المؤمنين ، أما المجرمون فان الله سبحانه كثيرا ماكان يحذرهم في آياته عذابا أليما وينذرهم عاقبة أعمالهم السيئة ، ثم يدعوهم الى التوبة .. وقد لوحظت هذه اللهجة في مخاطبته سبحانه للمجرمين في أكثر الآيات التي تتحدث عن كبائر الذنوب وأعمال المجرمين البشعة .. منها قوله عزّوجلّ :

((ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق)) "٣"

((ان الذين يكتمون ماانزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، الّا الذين تابوا وأصلحوا

---

(١) النور / ٣١ .
(٢) التحريم / ٨ .
(٣) البروج / ١٠ .

وبينوا فاولئك اتوب عليهم وأنا التواب الرحيم)) "١"

وعلى ضوء هذه الآيات القرآنية وغيرها من النصوص الشرعية وأدلة استنباط الحكم الشرعي "٢" الاخرى استفاد الفقهاء الأحكام الشرعية المتعلقة بالتوبة ، فحكموا بوجوبها على كل من خالف أمرا أو ارتكب حرمة ورد حكمها في الاسلام ، وكان بالغا عاقلا غير مضطر ولا مجبور على المعصية ، وعلى ضوء هذه الأدلة حدد قائد الأمة الاسلامية الامام الخميني أحكام التوبة للمسلمين جميعا في رسالته الغملية ، فقال :

((من الواجبات التوبة من الذنب ، فلو ارتكب حراما أو ترك واجبا تجب التوبة فورا ، ومع عدم ظهورها منه وجب أمره بها ، وكذا لو شكّ في توبته ، وهذا غير الأمر والنهى بالنسبه الى سائر المعاصي ، فلو شك في كونه مصرا أو علم بعدمه لا يجب الانكار بالنسبة الى تلك المعصية ، لكن يجب بالنسبة الى ترك التوبة)) "٣"

وكما ان التوبة واجبة على المذنب فورا ــ كما يظهر من كلام

---

(١) البقرة / ١٦٠ .
(٢) اختلف الفقهاء فى دليل وجوب التوبه هل هو وجوب ارشادي عقلى أم شرعي مولوي ، ويظهر من عبارات الشيخ الانصاري في المكاسب انه وجوب ارشادي عقلي وبذلك قال أكثر العلماء .
(٣) تحرير الوسيلة / ج ١ ، ص ٤٧٠ ، مسألة (٥) .

الامام ـ كذلك يجب على كل مسلم قد علم بشخص مرتكب للمعاصي أن ينهاه عن ذلك ، ويأمره بالتوبة ، ولا يحق له أن يتساهل في هذه المسؤولية ويترك العاصي حتى يتأكد من توبته .

ومن الملفت للنظر هنا حقا ، ان قائد الامة الاسلامية الامام الخميني قد أعطى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ المتعلقان بترك التوبة ـ حكما استثنائيا عن بقية المنكرات الاخرى ، فان سائر المنكرات ـ في نظره ـ لو احتمل المسلم بأن مرتكبها مصرّا على فعلها لا يجب عليه أن يبادر الى زجره ونهيه عنها ، الّا اذا علم وقطع بانه يريد أن يرتكبها فعلا "١" ، على العكس من تارك التوبة ، فيجب عليه أن يأمره بالتوبة على أي حال ، حتى لو شكّ بعدم توبته ، فاذا عرفت شخصا مذنبا واحتملت انه قد تاب ، فان هذا الاحتمال لا يسقط وجوب أمرك له بالتوبة ، بل يجب عليك أن تأمره بها ولا تتركه حتى تعلم انه قد تاب فعلا .

الثاني ـ الدليل العقلي "٢" : وهو الذي استدل به علماء الاخلاق والفقهاء على وجوب التوبة فورا على المذنبين ، وخلاصته :

انه لا ريب في وجوب التوبة على المذنبين فورا ، لأن الذنوب بمنزلة السموم المضرة بالبدن ، وكما يجب على شارب السم المبادرة

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ١ ، ص ٤٧٠ ، مسألة ٦ .

(٢) هذا الدليل هو الاصل عند الفقهاء لاثبات وجوب التوبة ، وقد أخرناه لغرض فني .

الى الاستفراغ وتناول الدواء لانقاذ نفسه المشرفه على الهلاك ،كذلك يجب على صاحب الذنوب المبادرة الى التوبة لينقذ حياته من اضرار المعاصي في الدنيا وعواقبها المخزيه فى **الآخرة** .

ومن أهمل المبادرة الى التوبة وسوّف الاقدام عليها بالتأجيل والتأخير من وقت الى آخر فهو بين خطرين عظيمين ان سلم من أحدهما فانه لا يسلم من الآخر قطعا ، وهما :

أ ـ ان تتراكم على قلبه ظلمات المعاصي الى أن تصير ريّنا وطبعا ، كما قال الله سبحانه في كتابه المجيد ((**كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون**)) "١". وكما روى عن أهل البيت (ع) بأن كل معصية يفعلها الانسان يحصل منها ظلمة في قلبه ، كما يحصل من البخار ظلمة على وجه المرآة ، فاذا تراكمت الذنوب صارت ريّنا كما يتحول البخار عند تراكمه على المرآة صدأ ، وقد يعبر عن صاحب هذا القلب بالقلب المنكوس ،كما جاء ذلك عن الامام الصادق (ع) في قوله :

((مامن شيء أفسد للقلب من خطيئته ، ان القلب ليواقع الخطيئه فلا تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله)) "٢"

وروي عن الامام محمد الباقر (ع) كذلك انه قال :

---

(١) المطفّفين / ١٤ .

(٢) البحار / ج ٧٣ ، ص ٣٧٧ .

((مامن عبد الّا وفي قلبه نكتة بيضاء ، فاذا أذنب ذنبا خرج من النكتة نكتة سوداء ، فان تاب ذهب ذلك السواد ، وان تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض ، فاذا غطى البياض لم يرجع صاحبه الى خير أبدا ، وهو قول الله عزّوجل (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون))) "١"

وقوله (ع) ((لم يرجع صاحبه الى خير أبدا)) يدل على أن صاحب هذا القلب لا يرجع عن المعاصي ولا يتوب منها أبدا ، ولو قال بلسانه ((تبت الى الله)) يكون قوله هذا مجرد تحريك اللسان من دون موافقة القلب ، فلا أثر له أصلا ،أعاذنا الله سبحانه من ذلك.

ب ــ أن يعاجله الأجل فلا ينتبه من غفلته الّا وقد حضرته ساعة الموت وفاته وقت التدارك وانسدت بوجهه أبواب التلافي ، وجاء الوقت الذي أشار اليه سبحانه بقوله ((وحيل بينهم وبين ما يشتهون))"٢" وصار يطلب المهلة والتأخير يوما أو ساعة ، فيقال له :ليس لك ذلك.

قال الله سبحانه وتعالى :

((يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون ، وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول

---

(١) الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٣ . (٢) سبأ / ٥٤

ربّ لولا أخّرتني الى أجل قريب فأصّدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون)) "١"

وقال بعض المفسرين ان المقصود بذكر الله هنا هو التوبة ،وان المحتضر يقول عند حضور ملك الموت ((ياملك الموت أخرنى يوما أعتذر فيه الى ربي وأتوب اليه واتزود صالحا ، فيقول : فنيت الأيام ،فيقول : أخرني ساعة ، فيقول : فنيت الساعات)) "٢"، فيغلق باب التوبة بوجهه ويتركه يتجرع غصّة اليأس وحسرة الندامة على تضييع العمر ،وربما اضطرب أصل ايمانه في صدمات تلك الأهوال نعوذ بالله تعالى من ذلك ،ونستجير به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ... ولهذا كان لقمان الحكيم يقول لابنه :((يابني لا تؤخر التوبة ، فان الموت يأتى بغتة))"٣"

وجوب التوبة على الجميع

قال الامام الصادق (ع) في مصباح الشريعة :

((التوبة حبل الله ومدد عنايته ، ولابدّ للعبد من

---

(١) المنافقون / ٩ ـ ١١ .
(٢) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٩١ .
(٣) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٥٨ .

مداومة التوبة على كل حال ، وكل فرقة من العباد لهم توبة ، فتوبة الانبياء من اضطراب السر ، وتوبة الاولياء من تلوين الخطرات وتوبة الاصفياء من التنفيس ، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله تعالى ، وتوبة العام من الذنوب ، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره ، وذلك يطول شرحه هاهنا ...»[1]

واذا اردنا تفسيرا مقبولا لهذا الخبر فيمكن فهمه على ان : التوبة مظهر من مظاهر التكامل الروحي والمعنوي للانسان ، فالتكامل حاجة انسانية عامة يقصدها حتى الانبياء . وهذا دليل على كمال اللهسبحانه وحده ، أما البشر فهم جميعا ناقصون بالنسبة اليه سواء كان منهم الانبياء أو الاولياء أو الاوصياء ، فهم جميعا بحاجة دائمة الى عناية الله ورحمته . ومن الطبيعي ان تختلف عند البشر درجات النقص التى تؤدي بهم الى الخطيئة ، وذلك حسب درجة ايمانهم ومستوى التزامهم بأحكام الله سبحانه ويقينهم برسالاته وآثاره . ولكنهم جميعا يستطيعون أن يسدوا هذا النقص بالتوبة ، كما أشار الى ذلك الامام الصادق (ع) .

---

(١) مصباح الشريعة / ص٩٧ ، ط بيروت .

دوافع التوبة ومقوماتها

التوبة وقفة تأمل وجدانية هادفة ، تبدأ بهزة ضميرية عنيفة،تنطلق من التفكير بأضرار الذنوب في الدنيا وعواقبها المخزية في الآخرة ... وتنتهي بقرارات داخلية صارمة يتخذها المذنب ضد نفسه الأمّارة بالسوء ، ثم يترجمها بعد ذلك الى سلوك طاهر صالح ، وحياة عامرة بالايمان والاستقامة ، ولا يمكن أن تولد هذه الوقفة الحاسمة في حياة المذنبين البعيدين عن الله تعالى الآ بعد أن تتوفر في نفوسهم مقومات رئيسية ثلاثة ، وهي :

١ ــ العلم بضرر الذنوب :

فعندما يتعرف الانسان المذنب على مساوئ سيئاته ومضارها على حياته في الدنيا والآخرة ، كما تحدثت عنها الآيات والروايات.. ويعلم أيضا بنتائجها المدمرة عليه وعلى أعضاء اسرته من جهة تربوية ، وانها تسبب النيل من سمعته وسخط المؤمنين عليه ، ونبذهم اياه وعدم مراعاتهم لحرمته ، حيث يجوز لهم غيبته ، اذ لاغيبة للفاسقين ، كما تسبب سخط الله سبحانه عليه وغضبه الذى يتجسد أحيانا بنزول النقم وقطع النعم وحبس الدعاء وحلول البلاء .. هذا بالاضافة الى مايلاقيه من خزي وهلاك في ظلمة القبر الموحشة ، وفي مواقف يوم الحساب

العصيبة نتيجة أعماله السيئة ·

حينما يعلم المذنب بكل هذه الاضرار للذنوب سوف يتألم على ما اقترف من سيئات ونتيجه لهذا الألم النفساني تحدث عنده يقظة ضميرية وتحصل لديه حالة نفسية تسمى ((بالندم)) ·

٢ ـ الندم على ارتكاب المعاصي :

والندم يقظة ضميرية واعية ، وهزّة وجدانية عنيفة تحدث في داخل الانسان فتستقطب مشاعره وتفكيره ، وهي تأتي بعد معرفة أضرار الذنوب ونتيجة لهذه المعرفة تشتعل نيران الندامة في القلب ويشتد لهيبها بأحد عاملين رئيسيين أو بكليهما معا ، وهما :

أ ـ الخوف من عقاب الله سبحانه في الدنيا والآخرة ·

ب ـ حب التقرب اليه جلّ شأنه ·

فاذا استولت مشاعر الندم على القلب انبعثت منها حالة أخرى جديدة تعرف ((بالارادة المصممة الصلبة))

٣ ـ الارادة القوية المصممة الصلبة :

وتتوجد هذه الارادة بعد الوضوح الفكري والعقائدي لمخاطر الذنوب ، وبعد حالة الندم المستعرة في الوجدان عند ذلك تنتفض الارادة لتترجم ثورة الضمير والوجدان الى عملية تغيير وانقلاب شامل في حياة الانسان ··· فيبدأ المذنب بالتفكير في تغيير خلجاته النفسية وأفكاره الداخلية ، وممارساته اليومية ليضعها في خط العودة الى الله سبحانه ، والالتزام بعقيدته ورسالته ،وهو فى كل ذلك معتمدا

على ارادته القوية المصممة ، متوكلا على الله ، وبهذه الارادة الصلبة يتخذ قرارات حاسمة شديدة وهادفة مع نفسه ، يعتمدها كبرنامج عملي تربوي ترويضي لحياته الجديدة بعد التوبة . وأهم هذه القرارات ثلاث ((ترك الذنوب في الحاضر)) و ((العزم على تركها في المستقبل)) و ((الاشتغال بتلافي تبعات الذنوب الماضية)) .

وقد أشار الشيخ النراقي في جامع السعادات الى مقومات التوبة الثلاث ، والى القرارات التربوية التي يتخذها المذنب في كلام مختصر قال فيه :

((العلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاث معان مترتبة في الحصول يطلق اسم ((التوبة)) على مجموعها)) "١"

فالتائب ـ اذا ـ انسان علم بأضرار ظلمة الذنوب على نفسه وعرف انها مبعدة له عن ساحة قدس الله تعالى ، وانها تعرضه لسخطه وانتقامه ، وتقوده الى نار جهنم ، فندم على مافرط في ماضيه وعزم على ترك المعاصي بارادة قوية وتصميم شديد على عدم العود الى ماكان عليه من انحراف عن خط الدين وابتعاد عن رب العالمين ، وبدأ حياة جديدة عامرة بالتقوى والعمل الصالح .

---

(١) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

قبول توبة المذنبين

اذا رجع المذنب الى ربه ، نادما على مافرط في جنبه ، قبل الله تعالى توبته وتجاوز عن خطيئته وغفر زلته ((**فانه كان للأوابين غفورا**)) "١" ، وقد ذكر سبحانه قبوله لتوبة المذنبين في أكثر من مرّة ، فقال :

((**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون**)) "٢"

وقال : ((**ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة من عباده ويأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم**)) "٣"

وقال : ((**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب**)) "٤"

وقال : ((**الّا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**)) "٥"

ومما روي عن طريق أهل البيت (ع) في قبول توبة المذنبين مارواه محمد بن مسلم ، عن الامام محمد الباقر (ع) ، حينما قال له :

---

(١) الاسراء / ٢٥ (٢) الشورى / ٢٥
(٣) التوبة / ١٠٤ (٤) غافر / ٣
(٥) البقرة / ١٦٠

((يامحمد بن مسلم : ذنوب المؤمن اذا تاب منها مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله انها ليست الّا لأهل الايمان ٠
قلت : فان عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد فى التوبة ؟ فقال : يامحمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته ؟ قلت : فانه فعل ذلك مرارا يذنب ثم يتوب ويستغفر الله ، فقال : كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة ، وان الله غفور رحيم ، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، فاياك أن تقنط المؤمن من رحمه الله)) "١"

وكان زين العابدين (ع) يقول في دعائه ((٠٠ يامن عوّد عباده قبول الانابة ، ويامن استصلح فاسدهم بالتوبة)) "٢"

قبول التوبة لطف إلهي

ان قبول الله تعالى لتوبة المذنبين العاصين من عباده مظهر

(١) الكافي / ج ٢ ، ص٤٣٤ ٠
(٢) الصحيفة السجادية ، دعاء ١٢ ٠

من مظاهر لطفه وكرمه ، حيث يتجلى لطفه سبحانه دائما في **تيسير كل** مامن شأنه أن يقرب عباده منه ويبعدهم عن ساحه غظبه ، تحننا منه عليهم ورأفه بهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ((**ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به**)) "١" ، ولا يسد أمامهم أبواب الرجوع اليه بعد التمرد عليه ، فيكون سببا لغيهم وطغيانهم وبعدهم عن ساحة رحمته ، حاشا له ذلك وهو الذي كتب على نفسه الرحمة ((**وكتب ربكم على نفسه الرحمة**)) "٢" تلطفا منه بعباده الذين يعلم ضعفهم ((**وهو اللطيف الخبير**)) "٣" ومن لطفه ورحمته أن أعطى عهدا للمذنبين يقبول توبة من رجع منهم اليه مخلصا في انابته نادما على جنايته ، فقال سبحانه لنبيه الكريم :

((**واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم**
كتب ربكم على نفسه الرحمه انه من عمل منكم سوءا
بجهاله ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم)) "٤"

وقال : ((**واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى**)) "٥"

فالآيات هنا تشير الى معنى وجوب قبول التوبة على الله سبحانه تجاه عباده المذنبين التائبين ، وتوضح بأن هذا الوجوب **ليس وجوبا** مفروضا عليه ، ولا العقل الانساني يعينه له ، وانما هو سبحانه كتب

---

(١) البقرة / ٢٨٦ — (٢) الانعام / ٥٤
(٣) الملك / ١٤ — (٤) الانعام / ٥٤
(٥) طـه / ٨٢

هذا الوجوب على نفسه ، وهذا هو المعنى الحقيقي لوجوب قبول التوبة على الله سبحانه تجاه عباده ، وهكذا يجب أن نفهم معنى وجوب كل ما يجب عليه سبحانه تجاه عباده .

شروط قبول التوبة

قال الله سبحانه وتعالى :

((**انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ،اولئك اعتدنا لهم عذابا أليما**)) "١"

وعلى ضوء هذه الاية فان شروط قبول التوبة ثلاث ، وهي :

* **الشرط الأول** : أن يكون التائب قد ارتكب معصيته عن جهالة ، (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم) ، وحالة الجهالة في اقتراف المعاصي

---

(١) النساء / ١٧ ـ ١٨ .

هي : أن يأتي الانسان بالمعاصي بسبب ضغوط الشهوة وغلبة الضعف فيقدم عليها من غير عناد مع الحق ولا اصرار على مافعل من فاحشة، كما يدل على ذلك قوله تعالى :

((**والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصرّوا على مافعلوا وهم يعلمون** ..)) "١"

وهذه الآيه تشير الى صفة نفسية تعتبر من أبرز صفات أصحاب ذنوب الجهالة وهي : انهم حينما ينتهون من عمل الفاحشة يقعون رأسا فريسة لعذاب الضمير وتأنيب محكمة الوجدان مما يجعلهم يؤبون بسرعة الى الله سبحانه ويطلبون منه الصفح والمغفرة على حياء مما فعلوا ويستفاد من هذه الآية ان كل مذنب يتصف بهذه الصفة النفسية ان تاب((**يجد الله غفورا رحيما**)) "٢"

والى هذا النمط من الطبيعة البشرية التي تعتريها حالات الضعف أو الجهالة فتقدم على المعصية من غير تحدي لله ولا انكار لآياته ولا جحود برسالاته أشار الله سبحانه في قوله :

((**واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمه انه من عمل منكم سوءا بجهاله ثم تاب من بعده ، وأصلح فانه غفور رحيم**)) "٣"

---

(١) آل عمران / ١٣٥ (٢) النساء / ١١٠

(٣) الانعام / ٥٤

أما الذين يقترفون المآثم والجرائم عن عناد مع الحق واصرار على الباطل واستكبار على الله تعالى ، كما فعل يزيد بن معاوية ، وعمر بن سعد والحجاج ، والشاه المقبور ، وصدام التكريتي وأمثالهم من جناة التاريخ ومجرمي الانسانية ، فان هؤلاء وأمثالهم لا تقبل توبتهم ، لأنهم كفروا بالله بعد ايمانهم وحاربوا أولياء الله ، ونكلوا بهم أشد التنكيل ، فليس لهم بعد ذلك توبة عند الله ((**ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم ، وأولئك هم الضالون**)) "١" ، بل ان هؤلاء الجناة لا يوفقون للتوبة أبدا ، وذلك بسبب تراكم ظلمات الخطايا والجرائم – التى اقترفوها – على قلوبهم فصارت متكلسة بادران السيئات متحجرة بأوساخ الآثام مما جعلها أشد قسوة من الحجارة ٠ فهذه القلوب الصلدة السوداء لا يمكن أن تقبل ومضات الهدى ، وشعاع نور الايمان ، فضلا عن التوبة المخلصة النصوحة ٠

ويقول علماء النفس المتخصصون بدراسة ظاهرة الجريمة ان من أبرز الصفات النفسية لهؤلاء الجناة المجرمين الكبار هو عدم شعورهم بوخز الضمير وتأنيب محكمة الوجدان حينما يفرغون من ارتكاب أبشع الجرائم وأشدها فضاعة ، ويعلل القرآن الكريم هذه الظاهرة النفسية لهم ، بأن قلوبهم تطبعت على الجريمة ، وألفت المنكرات وتعودت على اقتراف الجرائم ، فران عليها ماكانوا يكسبون من آثام ٠٠٠

---

(١) آل عمران / ٩٠ ٠

*الشرط الثاني : أن لا يتوب المذنب عندما يرى علائم الموت قد أحاطت به ، كما فعل فرعون الطاغية حينما أحاطت به أمواج البحر من كل صوب فرأى شبح الموت يلوح بين عينيه منذرا بقرب نهايته ،فاعلن توبته .. فهذه التوبة مرفوضة لأنها توبة المضطر ، توبة من ليس لديه متسع من العمر لارتكاب الذنوب ، فهي غير مقبولة لأنها لا تنشىء صلاحا في النفس ، ولا تأثيرا لها في الحياة ، بل ولا فائدة لها بعد أن انتهت فرصة الاستفادة من العمر وصاحبها يعاين ملك الموت وهو قادم لقبض روحه((**وليست التوبة للذين يعملون السيئاتِ حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن**)) .

أما الذين يتوبون الى الله تعالى ((**من قريب**)) على حد تعبير القرآن ، فان توبتهم مقبوله ، لأنهم أنابوا الى الله تعالى مخلصين نادمين قبل أن تتبين لهم سكرات الموت ، وقبل أن يحسوا انهم على عتباته ، فهؤلاء صادقون فى توبتهم مخلصون فى انابتهم ، والى هذا الصنف من المذنبين أشار الامام الصادق (ع) في حديث رواه عن آبائه عن جده رسول الله (ص) ، قال :

((قال رسول الله : من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته ، ثم قال : ان السنة لكثيرة ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته ، ثم قال : ان الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعة ، قبل الله توبته ، ثم قال : ان الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم ، قبل الله

توبته ، ثم قال : ان يوما لكثير ،من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته)) "١"

وقبول التوبة قبل المعاينة كناية عن التوبة قبل معرفة علائم الموت ، ويظهر من الآية"٢" والرواية أن قبول التوبة قبل المعاينة مشروط بعدم علم التائب بعلائم الموت ، فان تاب وفقا لهذه الشروط فتوبته مقبولة حتى لو وقعت قبل الموت بلحظات ، على العكس من توبة من يعلم انه سيموت ، فتوبته مرفوضة ، وان كانت قبل الموت بساعات ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى ان معنى التوبة هو العزم على عدم العود الى الذنب ـ كما عرفنا سابقا ـ وهذا العزم موجود في توبة من يتوب قبل الموت بلحظات ، مع عدم علمه بأنه سيموت ، بينما هو غير متحقق في توبة من يعلم بأنه سيموت بعد ساعات ، لأن العزم على عدم العود يتطلب منه أن يكون موجودا في الدنيا بعد التوبة ، بينما هو يعلم بأنه على أبواب الرحيل الى الآخرة . فهذا وان عزم على عدم العود الى المعصية بعد التوبة فهو على علم بأنه لا فرصة لديه ليعبر عن هذا العزم تعبيرا عمليا يكشف عن اخلاصه في توبته .

ولكن أئمه أهل البيت (ع) فرقوا في أحاديثهم بين من يتوب في حال الاحتضار وعند معرفته علائم الموت وهو عالم بأحكام الاسلام ، ومع ذلك يرتكب السيئات عن عناد واصرار ... وبين من يرتكب المعصية

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٤٠ .
(٢) نقصد الآية التي ذكرت شروط قبول التوبة .

وكان جاهلا بالاحكام ، فاعتبروا توبة الأخير حال معرفة علائم الموت مقبولة ، بعكس توبة العالم بالاحكام ، كما جاء في رواية زرارة ، عن الامام محمد الباقر (ع) ، قال :

((**اذا بلغت النفس هذه ـ واهوى بيده الى حلقه ـ لم يكن للعالم توبة ، وكانت للجاهل توبة**)) "١"

فلا ينبغى للمسلم الملتزم ـ اذن ـ أن يتساهل ويتسامح فى الاقدام على التوبة الى درجة يؤدى الى تأخيرها فتفوت عليه الفرصة بحضور الموت ، فان الله تعالى لا يقبل التوبة الّا من قلوب قد هزّها الندم من الاعماق ورجّها رجّا عنيفا حتى استفاقت فتابت وأنابت اليه سبحانه بعد أن استجدت عندها رغبة حقيقية في التطهر من دنس المعاصي ، وهي في فسحة من العمر .

***الشرط الثالث** : أن لا يتمادى المذنب في كفره وعصيانه ، حتى يموت وهو كافر ((**ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما**)) ، وبما انه لا معنى لتوبة المذنبين بعد الموت ، فيفهم من الآية اذن ان المقصود من عدم قبول توبة الذين يموتون وهم كفار هو عدم رجوع الله تعالى على الكافر المعاند باللطف والمغفرة يوم القيامة ، وهذا هو أحد معانى التوبة المنسوبة لله تعالى تجاه عباده فان توبته جلّ ذكره تجاههم عامة تشملهم في الدنيا والآخرة ، لأنه المطلق الذى لا تحده حدود ، وهذا يعني ان الله سبحانه سوف

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٤٠ .

يتلطف بالعفو والمغفرة على بعض عباده المذنبين بعد الممات ويمكن أن نعتبر قبوله سبحانه لشفاعة الشافعين لبعض المذنبين مظهرا من مظاهر هذا اللطف ولونا من ألوان التوبة الربانية على بعض المذنبين من عباده بعد الحياة الدنيا ، ولكن هذه التوبة الالهية لا تشمل الذين يموتون وهم كفار حسب هذا الشرط الاخير للتوبة ٠

هذه هى شروط قبول التوبة كما ذكرتها الآيه ، أما الآتيان بما يستتبعه الذنب من قضاء الفرائض الفائتة كالصلاة والصيام وأداء الحقوق المفروضة من خمس وزكاة ، وكذلك أداء حقوق الناس ،كردّ الاموال المسروقة أو المغصوبة والتمكين من القصاص ونحو ذلك فانها كلها ليست من شروط قبول التوبة ، بل هذه واجبات برأسها والتوبة صحيحة ومقبولة بدونها ٠

أما العمل الصالح بعد التوبة الذي ختم القرآن ـ في الدعوة اليه ـ أكثر آيات التوبة فهو ليس من شروط قبولها كما توهم بعض الافاضل من العلماء ،وانما هو من شروط كمالها ،ومن خصائص الاستقامه عليها ، كما سوف نتعرف على ذلك حينما نتحدث عن التوبة من جهة تربوية في الفصل الثالث ٠

التائبون امام القضاء الاسلامي

بقي علينا في هذا الفصل أن نتعرف على موقف القضاء الاسلامي من المجرمين والمذنبين التائبين ، وهل ان توبتهم تشفع لهم في سقوط العقوبة القانونية عنهم ؟ أم لا بدّ للقضاء الاسلامي من أن يأخذ مجراه لمعاقبتهم وان أعلنوا توبتهم مخلصين أمامه ؟

والكلام عن موقف المحكمة الاسلامية من المجرمين والمذنبين التائبين متصور فى حالتين فقط وهمها :

١ ـ فيما اذا تاب المذنب أو المجرم فيما بينه وبين الله تعالى قبل أن تثبت ادانته ، أو بتعبير آخر : تاب قبل أن تصل اليه يد القضاء الاسلامى ، ثم وصلت اليه بعد ذلك ٠

٢ ـ فيما اذا تاب المذنب أمام قاضي المحكمة الاسلامية بعد أن ألقي القبض عليه بالجرم المشهود ، أو بعد أن ثبتت ادانته حسب أدلة القضاء الاسلامي في اثبات الجريمة ٠

وسنتكلم باختصار(١) عن موقف العدالة الاسلامية من المجرمين التائبين فى كلا الحالتين :

---

(١) من يرغب بالتوسع في هذا الموضوع يراجع كتابنا (التائبون أمام القضاء الاسلامي) وهو الحلقة الثانية من هذه الدراسة ٠

الحالة الأولى :

وهي التي يتوب فيها المجرم قبل أن تثبت ادانته ، فان المتفق عليه بين فقهاء الامامية قبول توبته واعتبارها مسقطة لعقوبة الدنيا وعذاب الآخرة عنه .

فلو تاب مرتكب ((الزنا))"١" أو ((اللواط))"٢" أو ((شرب الخمر))"٣" أو ((السرقة))"٤" أو ((الافساد فى الارض))"٥" قبل أن تثبت ادانته قضائيا سقط عنه العقابان ، عقاب الدنيا وعقاب الآخرة .

فاذا عرف صلاحه بعد التوبة ثم قامت — بعد ذلك — دعوة عند المحاكم القضائية محاولة ادانته على جرمه القديم الذى تاب عنه لايصغى القاضي اليها .. فالسارق لا تقطع يده في هذه الحالة ، نعم يجب عليه ارجاع ماسرقه لأهله واصحابه ، لأن التوبة لا تسقط عنه حقوق الناس ، والذى استفدناه من كلمات الفقهاء بالاستقراء ان هذا الحكم عام يشمل كل الجرائم والذنوب ويسقط العقوبة عن المذنبين جميعا

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص٤٦٢ ، مسأله ١٦ .
(٢) = = = ، ص٤٧٠ ، مسأله ٨ .
(٣) = = = ، ص٤٨١ ، مسأله ٣ .
(٤) = = = ، ص٤٨٨ ، مسأله ٤ .
(٥) = = = ، ص٤٩٣ ، مسأله ٧ .

اذا تابوا قبل ادانتهم ويستثنى من ذلك القاتل والمرتد فقط ، فأما القاتل فتوبته مقبولة عند الله سبحانه ، ولكن سقوط العقاب القضائي عنه يتوقف على عفو ولي المقتول ، وأما المرتد فلا تقبل توبته اطلاقا على تفصيل خاص به سوف نتكلم عنه في محله من هذا البحث ان شاء الله ٠

الحالة الثانية :

وهي التي يتوب فيها المجرم عندما يقف مدانا بين يدي القضاء الاسلامي ، ويصل المذنب والمجرم الى يد القضاء عن طريق أحد أصول اثبات الجريمة ، وهي في المحاكم الاسلامية ثلاث :

١ ــ **علم القاضي** ((فيجوز للقاضي أن يحكم بعلمه من دون بيّنه أو اقرار أو حلف فى حقوق الناس ، وكذا في حقوق الله تعالى))"١" ، وهذا الاصل وان كان فيه خلاف بين الفقهاء الّا ان المشهور عند فقهاء الامامية ماذكرناه ، بل يظهر من كلماتهم انهم مجمعون عليه ٠

٢ ــ **الاقرار**"٢" ، فاذا أقرّ المذنب على نفسه بالجريمة كان للامام الحق في اقامة العقوبة عليه ٠ ، بل هو بالخيار بين أن يعفو عنه ويقبل توبته ، وبين أن يقيم عليه العقوبة ، على اختلاف بين الفقهاء فى هذا الامر وتفصيل بين جرم وآخر ٠

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص٤٠٨ ٠

(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص٤١٥ ٠

الّا ان اقرار المذنب أمام القضاء الاسلامي تبرعا من تلقاء نفسه بقصد التطهّر من الذنوب والجرائم ، أمر لا تشجع عليه الشريعة الاسلامية ، بل ورد عن أهل البيت عليهم السلام ذم مثل هذا التصرف فقد روي عن الامام الصادق (ع) قال :

((أتى النبي (ص) رجل فقال اني زنيت فطهرني . فقال رسول الله (ص) : لو استتر ثم تاب كان خيرا له)) "١" .

وروي ان رجلا أقر بالزنا أربع مرات لقنبر مساعد الامام علي (ع) ، في اموره الخاصة . فقال الامام لقنبر احتفظ به ، ثم غضب والتفت الى الحاضرين قائلا :

((ماأقبح بالرجل منكم أن يأتي بعض هذه الفواحش فيفضح نفسه على رؤوس الملاء ، أفلا تاب في بيته ، فوالله لتوبته فيما بينه وبين الله أفضل من اقامتي عليه الحد)) "٢"

وفي خبر آخر ورائع جدا بهذا الصدد عن أمير المؤمنين (ع) كذلك انه أتاه رجل فقال :

((ياأمير المؤمنين اني زنيت فطهرنى ، فأعرض عنه بوجهه ، ثم قال له : اجلس ، فقال : أيعجز أحدكم

---

(١) الوسائل / ج ١٨ ، ص٣٢٨ .

(٢) الوسائل / ج ١٨ ، ص٣٢٧ .

اذا قارف هذه السيئة أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه ؟ فقام الرجل فقال : ياأمير المؤمنين انى زنيت فطهّرني ، فقال :ومادعاك الى ماقلت ؟ قال : طلب الطهارة ، قال(ع) : وأي طهارة أفضل من التوبة ؟ ثم أقبل على أصحابه يحدثهم ، فقام الرجل فقال : ياأمير المؤمنين انى زنيت فطهرني ، فقال له : أتقرأ شيئا من القرآن ؟ قال : نعم ، قال : اقرأ ، فقرأ ، فأصاب ، فقال له : أتعرف مايلزمك من حقوق الله في صلاتك وزكاتك ؟ قال : نعم ، فسأله فأصاب ، فقال له : هل بك مرض يعروك أو تجد وجعا في رأسك أو بدنك ؟ قال : لا ، قال : اذهب حتى نسأل عنك في السر كما سألناك في العلانية ، فان لم تعد الينا لم نطلبك)) "١"

انها عظمة الاسلام وسماحته وحكمته تتجسد في كلمات علي(ع) و مواقفه على شكل قضاء عادل وعفو وصفح وستر ومغفره ، ولم تقف هذه العظمة الربانية في الشريعة الاسلامية عند هذا الحد في حالات الاقرار وانما تتعداها الى أكثر من ذلك حيث تعطي أحكام القضاء الاسلامي للامام الحق فى درأ الحدود بالشبهات"٢" وأن يعفو عن بعض

---

(١) الوسائل / ج ١٨ ، ص٣٢٨ ٠

(٢) كما نلمح هذا الحق من خلال هذا النص نفسه ٠

المذنبين"١" المقرين أمامه بخطاياهم ، المعترفين بجرائمهم المعلنين توبتهم عن صدق واخلاص فيصبح الامام حينئذ مخيرا بين اجراء العقوبة بحقهم أو الصفح عنهم ٠

٣ ـ **قيام البينة الشرعية** التى تثبت ارتكاب المذنب للجريمة قبل أن يتوب ويظهر صلاحه ، ففي هذه الحاله لابدّ أن ينال المذنب عقابه جزاء لما اقترفت يداه الآثمتان ، وتوبته أمام القضاء العادل لا تشفع له ، ولا تكون مسقطة للعقوبة عنه ، وان كانت سبيلا الى مغفرة الله تعالى وعفوه في الدار الآخرة ٠

توبة المرتدّ

المرتد : هو كل من خرج عن الاسلام واختار الكفر ، وهو على قسمين : ((**فطري**)) و ((**ملي**)) ٠

١ ـ **المرتد الفطري** : وهو من كان أحد أبويه مسلما حال انعقاد نطفته فى رحم ألام ، ثم اظهر الاسلام بعد بلوغه ، ثم خرج عنه ، فان تاب تقبل توبته واقعا ولا تقبل ظاهرا ، فيجب اقامه الحد عليه وهو ((القتل)) "٢" ٠

---

(١) وليس كلهم للنص ٠

(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، مسأله ١ ٠

٢ ـ **المرتد الملي** : وهو من كان أبواه كافرين حال انعقاد نطفته ثم أظهر الكفر بعد البلوغ ، فصار كافرا أصليا ، ثم أسلم ، ثم عاد الى الكفر ، وحكمه "١" أن يستتاب ثلاثة أيام ، فان تاب تقبل توبته وتسقط العقوبة عنه ، فان امتنع عن التوبة ورفضها قتل في اليوم الرابع ٠

أما اذا تكرر الارتداد منه مع تكرر التوبة يقتل في المرة الثالثة ، وقيل يقتل في الرابعة ، كما اختار ذلك الامام الخميني حفظه الله "٢" ٠

والمرأة اذا ارتدت لا تقتل سواء كان ارتدادها عن فطرة أو عن ملة ، فاذا بقيت على الارتداد تخلد في السجن ـ مع الاشغال الشاقة ـ فيضيق عليها في المأكل والمشرب والملبس وتضرب أوقات الصلاة ، فان تابت قبلت توبتها وخلي عن سبيلها "٣" ، قال صاحب الجواهر اجماعا ونصا ٠

توبة المفسد في الارض

ويسمى المفسد في الارض في مصطلح الفقهاء ((بالمحارب)) وعرفه الامام الخميني بقوله : ((وهو كل من جرد سلاحه أو جهزه لاخافة

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، مسأله ١ ٠
(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٥ ، مسأله ٥ ٠
(٣) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، مسأله ١ ٠

الناس وارادة الافساد في الارض،فى بر كان أوفي بحر ، في مصر أو في غيره ، ليلا أو نهارا ذكرا كان أو انثى)) "١" وقد نصّ القرآن الكريم على حكم المفسدين في الارضفي قوله تعالى :

((انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا في الارض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم الّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم واعلموا أن الله غفور رحيم)) "٢"

ويظهر من هذه الآية انها تتحدث عن حركة ــ فردية أو جماعية ــ في داخل المجتمع الاسلامي الذي يحكمه الاسلام ، ومن أبرز أهداف هذه الحركة هو محاولة تمزيق المجتمع الموحد عن طريق اخافة أبنائه واثارة الرعب والذعر بين صفوفه ، والاعتداء عليه والاخلال بأمنه ، ثم ترشد الآية الى الموقف السياسي والقضائي الواجب على المسلمين أن يقفوه من هذه الحركة المفسدة في بلادهم ، ويستفاد من كلمة ((أو ينفوا فى الارض)) ان عناصر هذه الحركه منبثقة من داخل المجتمع الاسلامى وهم اما من المسلمين ولكنهم انحرفوا عن الخط الاسلامي الصحيح فخرجوا على طاعة امامهم ــ قائد المجتمع الاسلامى ــ ووقفوا فى خط

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٢ ، مسألة ١ ٠
(٢) المائدة / ٣٣ ــ ٣٤ ٠

المعارضة التى تفسد في الظلام ، كالخوارج الذين خرجوا على حكم الامام أمير المؤمنين (ع) ، وأما من المسلمين المنافقين الذين يتظاهرون بالاسلام والدعوة اليه وأنهم يعملون لمصلحة الجماهير والامة وانهم انما يعارضون الدولة الاسلامية لأن قادتها حسب تصوراتهم وادعائهم لاتطبق حكم الاسلام ولاتسهر على مصالح الشعب.. وهؤلاء اذا خلوا الى شياطينهم اتخذوا من الافساد في الارض والنيل من السلطة الاسلامية وسيلة للانتقام من الاسلام والمسلمين في غلس الليل كما فعلت منظمة ((مجاهدي الشعب)) التي عاثت في الارض فسادا ودمارا وخرابا ، وقتلت الأبرياء والاطفال والنساء والشيوخ ، وفجرت بعض المنشآت الاقتصادية والمراكز الادارية للدولة حقدا على الاسلام وانتقاما من المسلمين فى ايران الاسلام .

فالمفسدون في الارض اذا ليسوا من الكفار ، وانما هم من المسلمين والى هذا المعنى أشار السيد الطباطبائى حينما فسّر آية المفسدين ، فقال :

((ان هؤلاء ليس من الكفار ،لأن النبى (ص) لم يعامل المحاربين من الكفار بعد الظهور عليهم والظفر بهم هذه المعاملة من القتل والصلب والمثلة والنفي))[1]

وفي الواقع انه من غير المتصور أن يكون المجتمع الاسلامى قادرا على القيام بحقوقه القانونية والسياسية التى ذكرتها الآية لمواجهة

---

(١) الميزان / ج ٦ ، ص ٣٢٦ ، ط بيروت .

العصابات المحاربة في داخله والقضاء عليها مالم يكن النظام الاسلامي هو النظام الحاكم في حياته ، والّا كيف يستطيع هذا المجتمع أن يعاقب هؤلاء المعتدين على حقوقه ويقتلهم أو يصلبهم أو ينفيهم من الارض ان لم يكن له سلطة قضائية مبسوطة اليد تأمر وتنهى باسم الاسلام ، وبهذا الفهم الواعي وحده يمكن أن نعرف اسلوب مواجهة المسلمين لأعدائهم المفسدين في بلادهم ، كما تؤكد صحة هذا الفهم الاحكام الشرعية التي بينها الفقهاء حول المفسدين وأوضحوا من خلالها طريقة القضاء عليهم ، ومن جملة هذه الاحكام ماذكره الامام الخميني حفظه الله بشأنهم فقال :

((اذا نفي المحارب من بلد الى بلد آخر يكتب الوالي الى كل بلد يأوي اليه بالمنع عن مؤاكلته ومعاشرته ومبايعته ومناكحته ومشاورته ، والأحوط أن لا يكون أقل من سنة وان تاب ، ولو لم يتب استمر النفي الى أن يتوب ، ولو أراد بلاد الشرك يمنع منها ، قالوا : وان مكنوه من دخولها قوتلوا حتى يخرجوه))"١"

ومن الواضح من خلال كلام الامام ان هذه الاجرائات القضائية التى يجب أن تتخذ ضد المفسدين لا يمكن أن يقوم بها المسلمون ضد المحاربين لهم في داخل مجتمعهم وضد المشركين الذين يحاولون حمايتهم سياسيا وأمنيا ودعمهم اقتصاديا الّا في ظل دولة اسلامية

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٣ ، مسألة ١٠ .

حاكمة عزيزة قوية .

وللشهيد السيد قطب تعليق لطيف في ظلال آية المفسدين يؤكد فيه على ان المحاربة والافساد غير متصورين الآ في ظل مجتمع اسلامي تحكمه شريعة الاسلام ، فيقول :

((وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص هو الخروج على الامام المسلم الذى يحكم بشريعة الله ، والتجمع في شكل عصابة خارجه على سلطان هذا الامام تروع أهل دار الاسلام ، وتعتدي على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعه الله ... لا يحاربون الحاكم وحده ولا يحاربون الناس وحدهم ، انما يحاربون الله ورسوله حينما يحاربون شريعته ويعتدون على الامة القائمة على هذه الشريعه ، فهم يسعون فى الارض فسادا وليس هناك أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله وترويع الدار التى تقام فيها هذه الشريعة)) "١"

وحكم المحارب أو المفسد في الارض ((لو تاب قبل القاء القبض عليه يسقط الحد عنه ، دون حقوق الناس من القتل والجرح والمال ولو تاب بعد الظفر عليه لم يسقط عنه الحد)) "٢" ، كما نصت على

(١) في ظلال القرآن / ج ٢ ، ص ٧٠٩ ـ ٧١٠ .
(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٣ ، مسألة ٧ .

ذلك الآية القرآنيـــة ٠

حقوق الناس

والكلام الذى مرّ علينا حول موقف القضاء الاسلامي من التائبيـن كان كله فيما يتعلق بالحق العام الذى يسميه الفقهاء ((بحق الله)) ، أما الحقوق الخاصة بالناس فيجب ارجاعها لهم سواء كانت أمـوالا أو جروحا أو قتلا أو غير ذلك وسواء كان المذنب المعلن لتوبته مسلمـا أو مرتدا أو محاربا فلا تسقط التوبة هذه الحقوق عنه ، فالواجب عليـه شرعا ايصالها وأدائها لأصحابها سواء قبلت توبته أو لم تقبل في المحاكم الاسلامية ٠

ويستثنى من هذا الحكم ، الكافر والمشرك الاصلي ، فان تـاب أحدهما ودخل في الاسلام لأول مرة ، فتوبته مطهرة له من جميـع الحقوق العامة والخاصة ، لأن الاسلام يجب ماقبله على حد تعبيـر الفقهاء ، أى ان التوبة من الكفر والشرك الاصلي يمحو بها الاسلام كل سيئة سابقة وكل تبعة قديمة سواء كانت متعلقة بحقوق الله سبحانـه أو بحقوق الناس ، وعلى ضوء هذا الحكم تفسّر الآيات المطلقه الدالـة على غفران السيئات جميعا بالنسبة للتائبين ، فان المقصود بهـذه الآيات هم التائبون من الكافرين والمشركين الاصليين خاصة لاغير ٠

الفصل الثالث

التوبة منهج تربوي رباني

التوبة دعوة مفتوحة للمذنبين

التوبة باب الله تعالى الآمن ، الذي فتحه الى ساحة عفوه ، كما جاء في دعاء الامام زين العابدين (ع) الذي قال فيه :

((الهي أنت الذي فتحت لعبادك بابا الى عفوك سميته التوبة ...)) "1"

نعم انها باب آمن لا يقف على عتباته قديس ولا راهب ولا رجل دين ، يدخله المذنب بكل بساطة — لا ببطاقات الغفران — بل وانما بكلمات معدودة ، بمجرد أن يتلفظها بصدق وعزم واخلاص ...

باب تركه جلّ ذكره — مفتوحا بالليل والنهار — ملجأً ومأوى لعباده الهاربين من واقعهم المنحرف ليدخلوه متى أرادوا بمجرد أن تستجد عندهم رغبة مخلصة في التطهر من دنس الخطايا والتخلص من واقعهم المنحرف.

انها سماحة الربّ العظيم بعباده الضائعين ، فهو — سبحانه — يقبل لجوئهم اليه وايوائهم تحت كنف مودته ولطفه مهما كبرت ، أوكثرت ذنوبهم وخطاياهم ... فتوبتهم جميعا مقبولة عنده ، متى رجعوا اليه مخلصين له الدين ، بشرط أن لا يقترفوا السيئات عن اصرار على

---

(1) الصحيفة السجادية / مناجات التائبين .

الباطل وعناد مع الحق ، ولا يقترفوا الذنوب استكبارا عليه جلّ ذكره .... وأن لا يطرقوا باب التوبة عندما تغلق الحياة أبوابها في وجوههم فييأسوا من اقتراف مايشتهون من منكرات .

والتوبة دعوة ربانية مفتوحة وموجهة لكل المذنبين في الارض ... فالمذنبون جميعا مدعوون لقبول هذه الضيافة الالهية من أجل أن يضعوا حدا لفسادهم وغيهم وتساقطهم وراء الملذات الدنيوية الرخيصة كما أشار الى هذه الدعوة الربانية الامام الباقر (ع) ، فيما روي عنه قال :

((انّ آدم(ع) قال : **يارب سلّطت عليّ الشيطان وأجريته منّي مجرى الدّم ، فاجعل لي شيئا ، فقال : ياآدم جعلت لك أن من همّ من ذريّتك بسيئة لم تكتب عليه ، فان عملها كتبت عليه سيئة ، ومن همّ منهم بحسنة فان لم يعملها كتبت له حسنة ، فان هو عملها كتبت له عشرا ، قال : يارب زدني ، قال : جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثمّ استغفر له غفرت له ، قال : يارب زدني ، قال : جعلت لهم التوبة ـ أو قال : بسطت لهم التوبة ـ حتى تبلغ النفس هذه ، قال : يارب حسبي**)) "١" .

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٤٠ .

وقد يتصور البعض ان فتح باب التوبة بهذه الرحابة ربما يكون سببا للاغراء بالمعصية ، حيث يمكن للانسان أن يقصد الذنب ، أو الجريمة وينوي التوبة منه بعد ارتكابه فيكون فتح باب التوبة للمذنبين بهذا المستوى من التسامح محفزا لارتكاب المأثم ومشجعا على التوغل في دنس الجريمة مادام المذنب والمجرم كلما تاب ((يجد الله غفورا رحيما)) "١" .

وهذا التصور مصدره الجهل بحقيقة التوبة في الاسلام ، فمعنى التوبة هو : الاقلاع عن المعصية بعد ارتكابها والعزم على عدم العود اليها ، وليس في توبة من يقصد المعصية بنية التوبة بعد الانتهاء منها اقلاعنها ، لأن مثل هذا الانسان كان عازما على التوبة قبل ارتكاب المعصية وفي اثنائها وبعد الانتهاء منها ، تماما كما فعل عمر بن سعد ـ قاتل الامام الحسين (ع) ـ فان هذا الخبيث كان يمنّي نفسه بالتوبة ويفكر بها قبل ارتكاب الجريمة .

وفي الحقيقة ان التفكير بالتوبة قبل تحقق المعصية لا معنى له ، بل هو لون من ألوان الاستهزاء بالقيم الاسلامية ، واسلوب من أساليب الخداع والمكر ((**ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله**)) "٢" ، كما حاق بعمر بن سعد ، فان عمر بن سعد وأمثاله لا تقبل توبتهم أبدا ، والى هذا الصنف من المذنبين أشار الامام الباقر (ع) بقوله :

---

(١) النساء / ١١٠ .

(٢) فاطر / ٤٣ .

((**المقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ**))"١"

أما توبة كثير الذنب الذى لازال غير قادر على التحكم في نزعاته والسيطرة على شهواته بسبب ضغف ارادته ، فانها مقبوله عند الله سبحانه مادام صاحبها لا ينوي العودة الى الذنب كلما تاب منه، بل جاء في بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام ، ان مثل هذا الانسان المبتلى بكثرة الذنوب التي يقابلها دائما بالتوبة له منزله خاصه عند الله سبحانه حيث قال : ((**ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**)) "٢" ، وروي عن الامام الصادق (ع) قوله :((**ان الله يحب من عباده المفتن التواب**)) "٣" والمفتتن التواب هو كل من كان كثير الذنب وكثير التوبة في نفس الوقت ، كما فسّرته بعض الروايات والواقع ان الاسلام حينما ترك باب التوبة مفتوحا على مصراعيه وبشكل دائم لمثل هؤلاء ضعفاء الارادة المجاهدين لأنفسهم ، كان يستهدف من وراء ذلك ربطهم بعلاقة دائمة متينة بخالقهم العزيز الرحيم ،فكلما ارتكبوا ذنبا رجعوا اليه نادمين ، وبهذه المراجعة المتواصلة بين العبد وربه كلما صدر منه الذنب فائدة تربوية عظيمة ، حيث تتعمق بسببها العلاقة الروحية والصلة المعنوية بين العبد الكثير الذنب ، وخالقه الكثير المغفرة ٠ ويتركز بواسطة هذه الصلة المستمرة الشعور العميق

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٣٥ ٠

(٢) البقرة / ٢٢٢ ٠

(٣) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٦٥ ٠

لدى المذنب التائب بالرقابة الغيبية في داخل ضميره ووجدانه فيتقوى الرادع الداخلي عنده مما يجعله يستحي من الله سبحانه في السر والعلانية ويحس برقابته عليه دائما وفي كل وقت كلما أراد أن يقدم على الذنب فيمنعه ذلك من ارتكاب المعاصي . كما أوضح هذا المفهوم التربوي للتوبة الرسول الاكرم (ص) حينما سأله رجل كان مبتلى بكثرة الذنوب ، قائلا :

((**يارسول الله (ص) : اني أذنبت ، فقال له : استغفر الله ، فقال اني أتوب ثم أعود ، فقال : كلما أذنبت استغفر الله ، فقال : اذن تكثر ذنوبي ،فقال : عفو الله أكثر ، فلاتزال تتوب حتى يكون الشيطان هو المدحور**)) "١"

وانطلاقا من هذا الفهم المربى للتوبة يتضح لنا بأن عدم الثقة بالاستقامة بعد التوبة لا ينبغي أن يكون **مانعا** من الاقدام عليها ، فمن أين للانسان التائب العلم بأنه سوف يرتكب المعصية بعد توبتههذه ؟ فلعله يموت طاهرا تائبا مخلصا في انابته الى الله قبل أن يعود الى الذنب ، ولعل الله سبحانه – حينما يعلم صدق نيته – يهيئ له الأجواء الصالحة التي تبعده عن المعصية وتقربه الى الطاعة ،فيساعده سبحانه على اصلاح نفسه . فلاينبغي للمذنب الراغب بالتوبة أن

---

(١) ارشاد القلوب / ج ١ ، ص ٤٦ .

يستجيب لمثل هذه الافكار الشيطانية ، وأن تلبست بلباس الدين والمتدينين ·

منزلة التائبين عند الله تعالى

لم يكتف الله تعالى بترك باب التوبه مفتوحا للمذنبين من عباده وانما أعطى ـ مع ذلك ـ المذنبين العائدين اليه امتيازات خاصه بهم ، ومنحهم هبات عظيمة من لطفه وكرمه ، اكراما لعودتهم اليه وتشجيعا لهم على ترك المعصية واعلان التوبة والتمسك بالاعمال الصالحة ·· فقد ورد في الاخبار عن المعصومين (ع) "١" : ان الله عزّوجل أعطى التائبين ثلاث خصال ، لو أعطى خصلة واحدة منها جميع أهل السماوات والارض لنجوا بها ، وهذه الخصال ذكرت في ثلاث آيات بينات :

أولها : قوله عزّوجل : ((**ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**)) "٢" ، فمن أحبه الله تعالى لم يعذبه ·

ثانيها : قوله عزّوجل : ((**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب النار ، ربنا**

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٣٢ ·

(٢) البقرة / ٢٢٢ ·

وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم)) "١"

وثالثها : قوله عزّوجلّ : ((**والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله الآ بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الآ من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما))** "٢"

ومن الضروري أن نعرف الحكمة التي من أجلها كرّم الله تعالى التائبين وبؤهم هذه الدرجات العظيمة ··· أوليس هؤلاء هم الذين كانوا بالأمس قبل توبتهم أبعد الناس عنه ، وأكثرهم عصيانا له وكفرانا بنعمه ؟ ··· فلماذا هذا التقدير والتكريم الزائد لهم بمجرد أن أعلنوا توبتهم أمامه ؟ !

والجواب واضح ··· فان المذنب انسان آلف أجواء المعصية بسبب ادمانه عليها واعتياده على الاستسلام لمغريات الشيطان والشهوات · فهو حينما يريد أن يغير واقعه المنحرف وينتقل بنفسه من أجواء الرذيلة والعودة الى حياة الطهر والاستقامة يواجه أصعب مرحلة خطيرة في حياته · انها مرحلة الصراع مع الذات ، مرحلة

---

(١) المؤمن / ٧ ـ ٩ ·
(٢) الفرقان / ٦٨ ·

المعانات الضميرية والمعركة الداخلية التي يحارب بها الانسان أشرس عدو له ، عدو غير منظور الوجود ولا السلاح ، وليس في ساحة مكشوفة انه العدو الداخلي المتمثل ((بالشهوات المحرمة الضاغطة)) و ((بالنفس الامارة بالسوء)) و ((بالشيطان وجنوده التي توسوس في في الصدور)) ، ان هذا الاخطبوط الثلاثي المحتال الذي كثيرا ما يكمن في النفس ويختفى عندما لا يرى الاجواء مناسبة لظهوره ، ولكنه سرعان ماينتفض قويا ماردا يخرب ويدمر ويوسوس ويعبث ماشاء له وكما يحب ويشتهي بمجرد أن يجد الاجواء مناسبة لذلك ٠ ان هذا العدو الخطير المدمر لم يكن الانتصار عليه وسحقه أمرا سهلا ، وخاصة عند اولئك المأسورين له ، الذين تعودوا حاله الخنوع والاستسلام لأمانيه والاستجابة لمطاليبه ، فالانتفاضة من قبلهم بوجهه والثورة عليه تعني بالنسبة لهم نقلة جديدة في الوعي الروحي والارادة ، لأنهم أحدثوا انقلابا حاسما وتغييرا شاملا في داخلهم ، تغيير يكشف عن انتصارهم على كل عوامل الضعف الداخلي التى يسببها هذا الاخطبوط الثلاثي المدمر ، وبذلك يصبح التائبون ـ المخلصون في توبتهم ـ أقوى عباد الله في طاعته وأكثرهم شجاعة في مجاهدة عوامل الانحراف التى تبعدهم عن رضاه ، فلماذا لا يستحقون اذن تكريمه وتفضيله لهم ـ جلّ ذكره ـ وهم عباده المخلصون المسافرون اليه حبا له وشوقا الى لقائه والتقرب الى حظيرة قدسه ٠ فهم لاشك أحبائه الحقيقيون على حد تعبير رسول الله (ص) في قوله :

((ليس شيء أحب الى الله تعالى من مؤمن تائب ومؤمنه تائبة)) "١"

وقد ترجم لنا الامام الباقر (ع) فى حديث له هذا الحب الالهي وصوره على شكل مشاعر فرح جياشة يلقى الله بها التائبين من عباده عند عودتهم اليه فيقول :

((ان الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده من ليلة ظلماء فوجدها ، فالله أشدّ فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها))"٢"

فاللقاء بين التائب وربه ليس لقاءاً عاديا ، وانما هو لقاء الصديقين المتعارفين منذ زمن قديم وتفارقا ، ثم تلاقيا ، وكان أحدهم أشد شوقا وفرحا بلقاء صاحبه وهو الله سبحانه ـ فالانتظار منه جل اسمه كان قديما ، ولكن العبد العاق المتمرد على طاعه سيده كان مشغولا بارتكاب المحرمات واتباع الشهوات كما أشار الائمة (ع) في أدعيتهم الى ذلك بقولهم :

((تدعوني فأولي عنك وتتحبب اليّ فاتبغّض اليك))"٣"

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٣٦٠ ٠

(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٣٥ ٠

(٣) مفاتيح الجنان / من دعاء الافتتاح ٠

الأبعاد التربوية للتوبة

التوبة مفهوم تربوي ديني ينطلق من ايمان الاسلام بطبيعة الانسان المركب من دم ولحم وعقل وروح وعواطف تتجاذبه نوازع الخير والشر ، فتارة يرتفع الى مصاف الملائكة بأفكاره وسلوكه ، وأخرى يسقط الى حضيض الحيوانية بشهواته ونزواته ، انه دائم بين الانحراف والاستقامة ، يقوم ويقعد ... فهو اذا بحاجة الى نافذة خير وأمل في مسيرته الحياتية ، نافذة مضيئة يستطيع أن يبصر نورها حتى ولو ذهب بعيدا عن طاعة الله في انحرافه وطغيانه .. أجل انه بحاجة الى هذه النافذة مادام يعيش في حياة محفوفة بالاشواك مليئة بالمغريات زاخرة بالشهوات الضاغطة الملحة ، فكانت التوبة هي النافذة التي تشع في نفوس العصاة الجناة الأمل في القدرة علي اصلاح أنفسهم وانقاذها من مهاوي الانحراف والعودة بها من جديد الى طريق الهدى والاستقامة . ومن هذا المنطلق نستطيع القول بأن التوبة تنطوي على بعدين تربويين :

البعد الأول : حفظ روح الرجاء من أن تخبو جذوتها لدى المذنبين الذين أسرفوا على أنفسهم فى ارتكاب الجرائم واقتراف المآثم فلكي لا يظن هؤلاء ان لا مغفرة لهم بعد اسرافهم هذا فينقلبوا يائسين

من رحمه الله سبحانه ، ممايجعلهم يتمادون في الانحراف والعصيان لله سبحانه شرعت التوبة في الاسلام لانقاذ أمثال هؤلاء من حالة السقوط في بحر القنوط ومن حاله الاستسلام لظلمات المعاصي ووساوس الشيطان .

((**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم**)) "١"

والخوف والرجاء من أهم أركان منهج التربية الاسلامية في الحياة ، فهما مبدأن قرآنيان لتربية الفرد والامة ووضعهما على الخط الاسلامي الصحيح ، ليهرب المسلم عما يضره خوفا من عقاب الله القوي الشديد ويتشوق الى ماينفعه ويصلحه رجاء مغفرة الله الواسعة ، وقد صوّر القرآن الكريم خطي ((الخوف والرجاء)) أروع تصوير في قوله سبحانه :

((**غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ذي الطول لااله الآ هو اليه المصير**)) "٢"

وتعتبر التوبة أبرز مفهوم تربوي يجسد عنصر الرجاء في منهج التربية الاسلامية ، كما يدلنا على ذلك أثرها التربوي العظيم في اعادة المذنبين الى طريق الله المستقيم وصدّ المجرمين عن غيهم وطغيانهم وانحرافهم عن منهج الله الحق ، ونلمح هذا الدور الايجابي لعنصر

---

(١) الزمر / ٥٣ .

(٢) غافر / ٣ .

الرجاء في التوبة من حديث الامام الصادق (ع) الذى يرويه عن النبي (ص) ، قال :

((قال الله عزّوجل من أذنب ذنبا فعلم ان لي أن أعذ به وأن لي أن أعفو عنه عفوت عنه)) "١"

وفي حديث آخر عن الامام الصادق كذلك (ع) جاء فيه انه قال :

((مامن مؤمن يذنب ذنبا الّا آجله الله سبع ساعات من النهار ، فان هو تاب لم يكتب عليه شيء ، وان هو لم يفعل كتب عليه سيئة)) "٢"

وهذه النصوص توحي للمذنبين بأن ذنوبهم مهما كثرت لا يمكن أن تقف حائلا بينهم وبين رحمة الله سبحانه ، بشرط أن يهتدوا الى طريق التوبة والمغفرة التي هي أقرب الطرق الموصلة اليه جلّ اسمه .

ومع ذلك يبقى عنصر الخوف من الله الشديد العقاب ، وهو العنصر الثاني في منهج التربية الاسلامية ، نعم يبقى هذا العنصر يعمل عمله التربوي كذلك ، فيوحي للمذنبين الطاغين في عصيانهم بأنهم مهما تمردوا على ارادة الله سبحانه وانحرفوا بعيدا عن رضاه وهربوا من ساحة طاعته ، فهم مع ذلك محاطون من قبله محاصرون في مملكته وليس لهم مصير الّا اليه ، فليحذروا اذن من الاصرار في عصيانهم وطغيانهم ، فان ورائهم حسابا عسيرا ويوما عصيبا ، يوم تبلى السرائر

---

(١) ثواب الاعمال / ص٢١٣ .

(٢) اصول الكافى / ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

فما لهم من قوة ولا ناصر .

وقد أوضح الامام الصادق (ع) في حديث له أهمية عنصر الخوف ، ـ كاسلوب تربوي ـ في تعبيد الانسان المذنب التائب لله سبحانه فقال :

((ان الرجل ليذنب الذنب ، فيدخله الله به الجنة !! قلت : يدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : نعم ، انه يذنب فلايزال منه خائفا ماقتا لنفسه ، فيرحمه الله فيدخله الجنة)) "١"

البعد الثاني : وهو انقاذ المذنبين من عقدة الشعور بالنقص والذنب أمام المتقين الطاهرين ، فالتوبة تشعرهم ـ على نحو اليقين ـ بأنهم أصبحوا في عداد الطاهرين الاتقياء بمجرد أن أعلنوا عن توبتهم لله سبحانه باخلاص والتزموا بشروط التوبة الصحيحة ، كما يدل على ذلك حديث رواه الفريقان عن رسول الله (ص) ، قال :

((التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له)) "٢"

وهكذا تصبح التوبة طريقا تربويا للتكامل النفسي ووسيلة للصلاح والفلاح في حياة التائبين ، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم :

((توبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)) "٣"

---

(١) اصول الكافى / ج ٢ ، ص ٤٢٦ .
(٢) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٦٥ .
(٣) النور / ٣١ .

درجات التوبة

للتوبة درجات عديدة ترتبط بمدى قوة ارادة التائبين ، وبحسب تصميمهم على ترك الذنوب وبمستوى التزامهم بشروط التوبة ومقومات نجاحها ، وهذه الدرجات هي اربع :

الدرجة الاولى : أن يتوب الانسان من ذنوبه ويستمر على الاستقامة فترة من الزمن ، ثم يعود الى مقارفة المعاصي وارتكاب الذنوب ، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله هذا ، بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع الشهوات ، فهذا يعتبر من جملة المصرين على ارتكاب المعاصي وتسمى نفسه ((**النفس الامارة بالسوء**)) التي أشار اليها القرآن الكريم ، وهذا يخشى عليه من سوء الخاتمة ٠

الدرجه الثانية : وهي أرقى من الاولى ، وخلاصتها :أن يتوب المذنب ويستمر على الاستقامة مدة من الزمن ، ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب ، فيقدم عليها لضعف ارادته ولعجزه من قهر شهوته ،الا انه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك لجملة من المحرمات ، وكلما فرغ من ارتكاب الذنب يندم على فعله ، ويقول : ياليتني لم أفعله ، وسأتوب عنه وأجاهد نفسي حتى أقهرها ، لكن نفسه دائما تسوّل له

عكس ذلك وتدعوه الى ارتكاب المعاصي ، ثم الى التوبة ، وهكـــذا يتوب ويخرق توبته مره بعد أخرى ، وتسمى نفس هذا المذنب بالنفس المسوّلــة ، وصاحبها من الذين قال الله سبحانه فيهم :

((**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخـــر سيــئا**)) "١"

وأمر هذا ((التائب المذنب)) من حيث مواظبته على الطاعـــات وكراهيته لما يتعاطاه من المعاصي مرجو ، فعسى الله أن يتوب عليــه ، ولكن عاقبته في خطر من حيث تسويفه في التوبة وتأخيره في الاقدام على المغفرة ، فلربما يختطف قبل أن يتوب ٠

الدرجه الثالثـــة : وهي درجة التائب الذى يسلك طريـــق الاستقامة في أمهات الطاعات ، وترك كبائر الذنوب والمعاصي كلهـا الّا انه ليس ينفك عن بعض المعاصي التي تعتريه بين فترة وأخـــرى ، ولكن لاعن عمد بل يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يعزم اعزامـا قويا للاحتراز من أسبابها التي تقوده لها ، ونفس هذا التائب تسـمى بالنفس اللوامة ، وهي كذلك مذكورة في القرآن الكريم ٠

الدرجه الرابعـــة : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الـــى آخر عمره ، ويتدارك مافرط في أمره ، ولا يحدّث نفسه بالعودة الـــى ذنوبه الّا الزلات التي لا ينفك عنها البشر الّا من عصم ، فهذا هـــو

---

(١) التوبة / ١٠٢ ٠

الذى استقام على التوبة ((النصوح)) وهي أعلى درجات التوبة من حيث الالتزام ، واسم نفس صاحبها ((**النفس المطمئنة**)) ، وهي التي قال الله سبحانه عنها :

((**ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية**)) "١"

وأصحاب هذه الدرجة الى قسمين :

أ ـ منهم من تاب وسكنت شهواته تحت قهر المعرفة الايمانية والحب الخالص لله سبحانه ، والايمان الثقيل الذي لا يتحمله الّا صاحبه ، ولم ينشغل بصراع نفسه في سلوك طريق الايمان الكامل ...

ب ـ ومنهم من تاب بقوة ارادته وخوفه الشديد من الله تعالى ، وهذا دائما يصارع شهواته لأنها تلح وتضغط عليه وتطلب منه الاستجابة الى مطالبها المحرمة ، ولكنه قوي بمجاهدتها وكسر جماحها وردها ..

والمستفاد من الروايات ان الثاني له فضل وثواب أعظم من الاول ، والله سبحانه أعلم بذلك .

التوبة النصوح

تحدثنا في الموضوع السابق عن درجات ((التوبة والتائبين))

---

(١) الفجر / ٢٧ .

وانتهى بنا المطاف الى الدرجة الرابعة من التوبة ، وهي أعلى درجات التائبين وتسمى بالتوبة ((النصوح)) وهنا نريد أن ندخل في تفاصيل هذه الدرجة من التوبة التي هي في الحقيقة تعبير عن واقعية الدين الاسلامي في تربية معتنقيه تربية صالحة كما هي دليل على حكمته ودقته في معالجة انحرافاتهم المزمنه المستعصية التي لا تزول الّا بالمعانات والاعتناء التربوي الهادف ، فالاسلام لم يكتف بالمواعظ التنظيرية لحث المذنبين والمجرمين على ترك عصيانهم واجرامهم والتزام الطاعة والقيام بالعمل الصالح ، وانما وضع لهم منهجا تربويا شاملا كاملا ودعاهم الى الالتزام به وتطبيقه ٠٠ منهجا ينقذهم من الاجواء المنحرفة ويخلصهم من الظواهر المرضية المستحكمة في نفوسهم وسلوكهم ويساعدهم على الصمود أمام دواعي السقوط ويأخذ بأيديهم نحو طريق الله المستقيم ٠ وقد أطلق الاسلام على هذا المنهج اسم ((العمل الصالح)) بعد ((التوبة النصوح)) وتولى أهل البيت عليهم السلام توضيح معناه للامه وشرح معالمه الرئيسة وبينوا أحكامه الشرعية ومنهجه التربوي ٠ فما هو ياترى معنى ((التوبة النصوح)) وما هي أهدافها التربوية ، وماهو برنامجها العملي ؟؟

معنى التوبة النصوح لغة وشرعا

النصح يأتى لغة بمعنى : الاخلاص نحو نصحت له الـــود ، أي أخلصته "١" ، فالتوبة النصوح هي التي تصرف صاحبها عن المعصيـة وتخلصه من الرجوع الى الذنب وذلك بتحرى جميع الطرق التربويـــة التى تصده عن المعصية ٠

ومعناها شرعا : هي التوبة التي لا يعود فيها التائب الـــى الذنب الذى تاب منه على ماورد عن أبي صباح الكناني ، قال : سألت الامام الصادق (ع) عن معنى قول الله عزّوجل :

((ياأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا))

فقال : ((يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه)) "٢"

وفي رواية أخرى عن أبي بصير قال : سألت الامام الصادق (ع) عن تفسير قوله :

((ياأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا))

فقال : ((هو الذنب الذي لا يعود فيه أبدا ! قلت: وايننا لم يعد ؟ فقال : ياأبا محمد ان الله يحب من عباده

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الاصفهاني مادة (نصح)

(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٣٢ ٠

المفتن التواب)) "١"

فالتوبة النصوح اذا انابة مخلصة صادقة تنصح القلب وتخلصه من رواسب المعاصي وتضل تذكّر صاحبها وتنصحه لئلا يعود الى الذنب مرّة أخرى ، لذلك سميت توبة نصوحا .

ويستفاد من رواية أبي بصير ـ رضوان الله عليه ـ ان التوبة النصوح لا تجعل صاحبها معصوما عن ارتكاب الذنوب ـ كما ربما يتصور البعض ـ فان هذا خلاف طبيعة البشر المعجونة بالخير والشر ، فصاحب التوبة النصوح قد يقع بعدها في زلات المعاصي التي لا ينفك عنها بنو آدم أبدا ، غاية الامر ان هذه التوبة هي أفضل أنواع التوبة لأنها تضع التائبين على طريق الانابة الصادقة لله سبحانه ، والاستقامة الصحيحة علي منهجه ، ومن صفات صاحبها انه كلما أذنب رجع بسرعة الى ربه نادما مستغفرا ذنبه ، فيبقى متمسكا بحبل التوبة النصوح ولا يترك رين المعاصي تتراكم على قلبه ، بل يجلوها دائما بالاستغفار متمسكا بقول رسول الله (ص) : ((لكل داء دواء ، ودواء الذنوب الاستغفار)) "٢" ، وفي حديث آخر عنه كذلك ، قال (ص) : ((طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كل ذنب استغفر الله)) "٣" .

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٣٢ .
(٢) ثواب الاعمال / ١٩٧ .
(٣) = = = .

فالتائب توبة نصوحا انسان تقى مواظب على الطاعات ، مجتنب للمحرمات مراقب لنفسه في كل الحالات ، فاذا داهمته ساعة الغفلة واوقعته في المعصية رجع بسرعة الى ربه مستغفرا ذنبه وهو على خجل مما فعل ٠

الاسلام يحث على التوبة النصوح

تختلف التوبة النصوح في اسلوب ممارستها عن درجات التوبة الثلاث التي قبلها ، فالتوبة العادية تقع من المذنب بمجرد أن يندم ويستغفر ويقوم ببعض الاعمال الصالحة ، بينما تتميز التوبة النصوح عن التوبة العادية بمميزات خاصة على الصعيد النفسي والتطبيقي ـ كما سنستعرضها بعد قليل ـ وهذه المميزات هي التي تجعلها أكثر قدرة من غيرها على هداية صاحبها ووضعه على خط الاستقامة الثابت ومن هذا المنطلق ورد الحث عليها كثيرا في القرآن الكريم وعلى لسان أهل البيت عليهم السلام ، ومما ورد بشأنها في القرآن الكريم قوله سبحانه :

((يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من

تحتها الانهار)) "١"

وروي عن رسول الله (ص) انه خطب يوما بالمسلمين فقال:

((ايها الناس توبوا الى الله توبة نصوحا قبل أن تموتوا وبادروا بالاعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ... واصلحوا بينكم وبين ربكم تسعدوا ...)) "٢"

وروي عن ابن وهب انه سمع الامام الصادق (ع) يقول:

((اذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ماكتبا عليه من الذنوب ويوحي الى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه ويوحي الى بقاع الارض اكتمي ماكان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب)) "٣"

التوبة النصوح وازدواج الشخصية

من أخطر مايعانيه المذنبون من مشاكل نفسية ـ في المجتمع

---

(١) التحريم / ٨ .

(٢) ارشاد القلوب / ج ١ ، ص ٤٥ .

(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٣٠ .

الاسلامي ـ هو فقدانهم لحالة الانسجام والتطابق بين رغباتهم الذاتية وممارساتهم السلوكية ، فالمذنبون في حالة صراع دائم بين الاستجابة لملذاتهم الخبيثة من جهة وبين الالتزام بقيم الدين وتقاليد المجتمع وعاداته الخيّرة من جهة أخرى ٠ فهم من أجل أن يعكسوا للمجتمع لونا من الانسجام بين دوافعهم الذاتية والقيم الاجتماعية التي تحكمه يتظاهرون للآخرين بخلاف واقعهم النفسي فيحاولون التحدث لهم بالشرف والقيم والكرم ويتظاهرون بالتمسك بأفعال الصالحين وصفاتهم كذبا ورياء ونفاقا لأنهم ـ في واقعهم ـ أبعد الناس عن ذلك، بل هم في حقيقتهم ـ وكما يعرفون أنفسهم ـ لأشدّ شراسة من الوحوش الكاسرة حين الاقدام على المحرمات في غلس الظلام ،وعندما يتأكدون من عدم وجود المراقب لهم من بني البشر !!

وتسبب هذه الحالة في كثير من الاحيان للمذنبين اضطرابا في شخصيتهم وتذبذبا واضحا في سلوكهم ٠

وهذه الحاله تنتهي بكثير من المذنبين وخاصة المجرمين منهم الى مرض نفسي خطير يطلق عليه علماء النفس اسم مرض ((**الازدواج في الشخصية**)) "١" وتسميه الشريعة الاسلامية ((**مرض النفاق**))"٢" وقد يؤدي هذا المرض النفسي الخطير بالمذنبين الى أمراض أخطر منه

---

(١) النفاق هو أحد أعراض ازدواج الشخصية في رأي علم النفس ٠

(٢) هذه الحالة من مظاهر النفاق في الاسلام ،لأن النفاق في الفهم الاسلامي له صور متعدده ٠

كل ذلك نتيجة لعدم تطابق الدوافع الذاتية للمذنبين مع القيم والتقاليد السائدة في مجتمعاتهم ، ويمكن أن تحل مشكلة عدم التطابق هذه بسلوك أحد طريقين :

أحدهما : أن يكشف المذنب عن حقيقته للآخرين ، فيكسر حاجز الحياء ويتصرف بدون أن يكترث بهم ولا بالقيم الدينية أو التقاليد الاجتماعية التي تحكم مجتمعه فيظهر للناس كأى مجرم مكشوف في انحرافه وعدم التزامه بالقيم والأخلاق الفاضلة ، فحينئذ تتطابق دوافعه الذاتية مع واقعه السلوكي ، وتنحل عنده مشكلة الازدواج في الشخصية ·

وهذا اللون من العلاج مرفوض في الشريعة الاسلامية ، لأنه وان كان يعالج بعض جوانب مرض ازدواج الشخصية الّا انه يوقع الانسان في أمراض نفسية وجسمية واجتماعية أخرى ـ لا مجال للحديث عنها هنا ـ وهي أخطر بكثير من مرض الازدواج في الشخصية ،أو بتعبير ديني مرض النفاق السلوكي ·

ثانيهما : أن يتوب الانسان المذنب توبة نصوحا فيتخلص من هذا المرض النفسى الخطير ، حيث تصبح دوافعه الذاتية منسجمة انسجاما كليا مع سلوكه وتصرفاته والى هذا المعنى أشار الامام الصادق (ع) حينما سألوه عن التوبة النصوح ، فقال :

((أن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل)) "١"

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٣٦١ ·

التوبة النصوح منهج تربوي كامل

قلنا قبل قليل ان التوبة النصوح تختلف عن التوبة العادية بما تتميز به من خصائص ومقومات تربوية تجعلها أكثر قدرة من غيرها على هداية صاحبها ووضعه على خط الاستقامة الثابت ، وهنا نريد أن نتعرف على المعالم الرئيسة للمنهج التربوي لهذه التوبة من خلال المفاهيم والافكار التربوية التي أثارها أهل البيت (ع) حول اسلوب ممارستها .

ويمكننا تحديد هذا المنهج التربوي للتوبة النصوح على ضوء أحاديث أهل البيت (ع) في أربع خطوات رئيسة ، وهي :

الخطوة الاولى : التخطيط للتوبة .

الخطوة الثانية : اعلان التوبة .

الخطوة الثالثة : تطبيق الخطط والمقررات العملية للتوبة .

الخطوة الرابعة : المراقبة الذاتية والمحاسبة اليومية .

الخطوة الاولى :
التخطيط للتوبة

ينصح علماء النفس والتربية ذوي العادات السيئة كشرب الخمر أو الافيون ـ مثلا ـ بأن لا يصمموا تصميما ارتجاليا فوريا من أجل التخلي عن عاداتهم المستحكمة السيئة ، لأن التصميم الفوري اذا لم يكن مدروسا لا يدوم طويلا بل سرعان ماينهار ويرجع صاحبه الى عادته القديمة ، وترى التربية الاسلامية كذلك انه من الضروري للمذنب قبل أن يمارس أعمال التوبة النصوح أن يحاول اكتشاف جوانب الضعف في حياته وذاته وشهواته ، تلك التي يمكن أن تسبب له التراجع عن قرار التوبة ، وعلى ضوء هذا الاكتشاف يضع التائب خطته التربوية الشاملة التي تكفل له المسيرة قدما بنجاح نحو التوبة النصوح ، ويطرح الامام الصادق (ع) هذا الرأي حينما يسأل عن تفسير قول الله تعالى :

((توبوا الى الله توبة نصوحا)) فيقول :

((هو صوم يوم الاربعاء والخميس والجمعة)) "١"

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٣٦٣ .

((فالصوم امتحان واختبار لصدق الانسان مع الله لأنه يضع الانسان في امتحان عسير يتطلب منه الانقطاع من كل متع الحياة ... من الطعام والشراب والملذات .. الخ ، فالصائم يعبر بصيامه عن انتصار حب الله والاخلاص له على حب نفسه ومتعها ولذائذها ... وهذا الانتقال من حب الذات والشهوات الى حب الله والتعلق به يحدث أروع آثار التغيير داخل كيان الصائم ... التغيير الذي يحقق له الارتباط بالله والتوبة اليه ، والتقرب منه والنظر الى كل شي في الحياة من خلال هذه العلاقة مع الله ... وعندما يحتل الصائم هذا الموقع من الايمان تكون ذاته قد تجاوزت مراحل التمرغ بأوحال الانحراف والشذوذ وسلكت سبيل التكامل والصمود نحو عالم السمو الروحي معلنة بتجربتها العملية ـ الصوم ثلاثة أيام ـ كف النفس عن كل محرم ، فيكون هذا الموقف التجريبي مدخلا للاعلان الصادق عن التوبة النصوح والاستقالة من الذنوب والمعاصي ومفارقة الجرائم والمآثم ، فتدخل النفس التائبة عن استحقاق أبواب المغفرة والقرب الالهي ، بعد أن مرت بتجربة الرفض والخلاص من الذنوب في ثلاثة أيام من الصيام .

فتكتشف عن طريق الصوم قيمة الاخلاص لله وقابليتها في مواجهة الشهوات والملذات وقدرتها على تحدي كل المغريات التي تسبب لها الوقوع في المحرمات)) "١" ان ثلاثة أيام من الابتهال والصوم

---

(١) الصوم عبادة وتربية / ص ١٣ ـ ١٤ (باختصار وتصرف) .

والعبادة والانقطاع الروحي لله والتأمل والتفكير باضرار الذنوب والتخطيط الشامل للتخلص منها كافية لوضع خطة ناجحة ومدروسة تساعد التائب على المضي في العمل الصالح والتوبة النصوح وعدم العودة الى الذنوب ٠ ومن هنا ندرك مغزى حديث الامام الصادق (ع) السابق ٠ فصوم الايام الثلاثة هي فترة ترويضية يقضيها التائب في حالة ترقب وترصد لذاته ليكشف من خلال ذلك نقاط الضعف في شخصيته التي يمكن أن يغزوه الشيطان من خلالها ، وعلى ضوء ذلك يضع خطته التربوية التى تساعده على الاقلاع عن جميع المعاصي وعدم العودة اليها نهائيا ٠ مستعينا بالمنهج التربوي العملى الذي وضعه أهل البيت (ع) في هذا المجال "١"

الخطوة الثانية :
إعلان التوبة

ويقدم التائب عليها بعد أن يضع خطته الشاملة التي تبعده عن الاجواء المنحرفة وتثبته على القيام بالاعمال الصالحة ، وتشتمل هذه الخطوة على ثلاثة أعمال عبادية مهمة ، وتكون هي المدخل

---

(١) كما ستعرف ذلك في الحديث حول الخطوة الثالثة ٠

الرئيسي لأعلان التوبة النصوح كما جاء ذلك عن الامام الصادق (ع) وهذه الاعمال الثلاثة هي : ((القيام بغسل التوبة)) و ((اداء صلاة التوبة)) و ((التضرع الى الله وطلب المغفرة منه)) "١" .

ولا مانع من أن تقع هذه الخطوة ضمن الخطوة الاولى ما دامت هي خطوة عبادية محظة ، ولا تتعارض مع كون الايام الثلاثة من الصوم لاختبار الذات والتخطيط لمواجهه نقاط الضعف فيها ...

وقد دلّ على هذه الاعمال الثلاثة في الخطوة الثانية ما رواه مسعدة بن زياد عن الامام الصادق (ع) ، قال :

((كنت عند أبي عبد الله ــ يعني الامام الصادق (ع) فقال له رجل : بأبي أنت وأمي ادخل كنيفا ، ولي جيران وعندهم جوار يتغنين ويضربن بالعود ، وربما اطلت الجلوس استماعا مني لهن ، فقال (ع) لا تفعل فقال الرجل : والله ما آتيتهن انما هو سماع أسمعه باذني ، فقال (ع) بالله أنت ما سمعت الله يقول: ((ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا)) ؟ فقال : بلى والله ، كأني لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من عربي ولا عجمي ، لاجرم اني لا أعود ان شاء الله واني استغفر الله ، فقال له : قم فاغتسل ، وصلّ ما بدا لك ، فانك كنت مقيما على أمر عظيم ، ما كان أسود

---

(١) من المستحب هنا قراءة أدعية التوبه ، واهمها دعاء الصحيفة السجاديه .

حالك لو متّ على ذلك ، احمد الله وسله التوبة من كل ما يكره ، فانه لا يكره الّا كلّ قبيح ، والقبيح دعه لأهله فان لكل أهلا)) "١"

فقد بينت هذه الرواية على ان هذا الانسان كان مصرا على معصيته ، فهو اذا بحاجه الى أن يتوب منها توبة نصوحا ، والغسل والصلاة والتضرع الى الله وطلب المغفرة منه أعمال عبادية دلّت هذه الرواية على ضرورة القيام بها لكل من أراد التوبة النصوحة من ذنوبه كما استظهر منها ذلك شيخنا البهائي رحمه الله "٢" .

وفي رواية أخرى ذكرها ابن طاووس عن رسول الله (ص) تناولت هذه الاعمال العبادية الثلاثة الصالحة في التوبة المخلصة ، وهي تختلف عن رواية الامام الصادق (ع) ، وللفائدة التربوية نذكرها هنا وهي عن أبي امامة عن أنس بن مالك ، قال : خرج رسول الله (ص) يوم الاحد فى شهر ذي القعدة ، فقال :

((يا أيها الناس من كان منكم يريد التوبة ؟ قلنا : كلنا نريد التوبة يارسول الله ، فقال (ص) اغتسلوا وتوضأوا وصلّوا أربع ركعات واقرأوا فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين مرة ، ثم استغفروا سبعين مرة ، ثم اختموا بلاحول ولا قوة الّا

---

(١) الوسائل / ج ٢ ، ص ٦٥٧ .

(٢) فى كتابه الاربعين / ص ٢٤٥ .

بالله العلي العظيم ، ثم قولوا * ياعزيز ياغفار اغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات فانه لا يغفر الذنوب الآ أنت * ، ثم قال (ص) : مامن عبد من امتي فعل هذا الآ نودي من السماء ياعبد الله استأنف العمل ، فانك مقبول التوبة ، مغفور الذنب ، وينادي ملك من تحت العرش : أيها العبد بورك عليك وعلى أهلك وذريتك ، وينادي مناد آخر : أيها العبد ترضى خصماؤك يوم القيامة ، وينادي ملك آخر : ايها العبد تموت على الايمان ولا أسلب منك الدين ويفسح في قبرك وينور فيه ، وينادي مناد آخر : أيها العبد يرضى أبواك وان كانا ساخطين ، وغفر لأبويك ذلك ولذريتك وأنت في سعة من الرزق فى الدنيا والاخرة وينادي جبرائيل عليه السلام أنا الذى اتيك مع ملك الموت عليه السلام ان يرفق بك ولا يخدشك اثر الموت انما تخرج الروح من جسدك سلا ـ وفي رواية اخرى " سلاما " ـ))

قلنا يارسول الله ، لو أن عبدا قال ذلك فى غير هذا الشهر ؟ فقال (ص) : ((له مثل ماوصفت ، وانما علمني جبرائيل عليه السلام هذه الكلمات ايام اسرى بي))(١)

(١) الاقبال / ص٣٠٨ .

الخطوة الثالثة :
تطبيق الخطط العملية للتوبة

يبدأ التائبون في هذه الخطوة بممارسة الخطط التربوية العملية للتوبة وفقا لمنهج تربوي تطبيقي تقرره التربية الاسلامية ، وتهدف مجمل خطط هذا المنهج في هذه الخطوة الى تخليص التائبين من العوامل الذاتية والخارجية التي كانت سببا لانحرافهم ٠

وهذا المنهج يشتمل على نوعين من الخطط التربوية في هذا المجال ، خطط ثابتة تكفلت التربية الاسلامية بوضعها وبيانها ٠٠٠ وخطط مرنة يضعها التائب لنفسه انطلاقا من احاطته بعوامل الانحراف ــ في ذاته وحياته ــ التي تسبب له الوقوع في المحرمات ٠

وسنقتصر هنا على الكلام عن منهج الخطط التربوية الثابتة في هذه الخطوة ٠٠٠ ولدينا روايات ونصوص اسلامية عديدة اهتمت برسم المعالم الرئيسة لهذا المنهج ، ولكن للاختصار سنعرض روايتين منها فقط :

الرواية الاولى :

جاء في نهج البلاغة ان أمير المؤمنين (ع) ردّ على رجل قال بحضرته ((استغفر الله)) قائلا :

((ثكلتك أمك ! أتدري ما الاستغفار ؟ ان الاستغفار درجة العليّين ، وهو اسم واقع على ستة معان : اولها : الندم على مامضى ، والثاني : العزم على ترك العود اليه أبدا ، والثالث : أن تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عزّوجل أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد الى كل فريضة عليك ضيعتها ، فتؤدي حقها والخامس : أن تعمد الى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى تلصق الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحم جديد ، السادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله)) "١"

الرواية الثانية :

وردت في كتاب مصباح الشريعة المنسوب للامام الصادق (ع) ، قال فيها :

((... وأما توبة العام فأن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة والاعتراف بجنايته دائما ، واعتقاد الندم على مامضى والخوف على مابقي من عمره ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك الى الكسل ويديم البكاء والأسف

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ج٢٠ ، ص٥٧ .

على مافاته من طاعات الله ،ويحبس نفسه عن الشهوات ويستغيث الى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود الى ماسلف ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة ، ويقضي على الفوائت من الفرائض ويرد المظالم ويعتزل قرناء السوء ، ويسهر ليله ويظمأ نهاره ويتفكر دائما في عاقبته ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرائه وضرائه ، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوابين ، فان في ذلك طهارة من ذنوبه وزيادة في عمله ورفعة في درجاته ، قال الله عزّوجل : * وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين*)) "1"

ويظهر من مضمون هذين الحديثين انهما يتفقان في تسليط الاضواء على أهم الاسس التربوية التى ينبغي أن ينطلق منها كل من أراد أن يطرق باب التوبة النصوح محاولا الوصول الى درجة عالية من درجات الايمان والالتزام الصحيح .

واليك ـ قارئي الكريم ـ أهم الارشادات التربوية المشار اليها في هذين الحديثين ، والتي لابدّ لكل من أراد أن يسلك طريق التوبة النصوح أن يتمسك بها ، وهي :

---

(١) مصباح الشريعة / ٩٧ ـ ٩٨ .

١ ــ أن يظهر التائب الندم الشديد على حياته الماضية التي قضاها في أجواء الانحراف والشهوات المريضة بعيدا عن طاعة الله سبحانه ، وقد أشار الامام الصادق (ع) في حديثه السابق الى هذه الفقرة بقوله : ((**وأما توبة العام فان يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة والاعتراف بجنايته دائما واعتقاد الندم على مامضى**)) .

٢ ــ أن يشدد العزم بارادة قوية وتصميم أكيد على عدم الرجوع الى ماكان عليه من انحرافات سابقة ، والى هذه الفقرة أشار الامام أمير المؤمنين (ع) بقوله : ((**العزم على ترك العود اليه**"١" أبدا))"٢"

٣ ــ أن يحصي الفرائض التي فاتته في وقت انحرافه الى يوم توبته ويقضي كل مافاته من هذه الطاعات الواجبه كالصلاه والصيام وأداء الحقوق من الخمس والزكاه والحج ... الخ . فانه لاطريق للتوبة من هذه المخالفات جميعا الّا أن يجتهد في قضائها وادائها بقدر الامكان ، ولا يترك في عهدته شيئا منها ، وأشير الى هذه الفقرة في حديث الامام أمير المؤمنين (ع) بقوله : ((**ان تعمد الى كل فريضة ضيعتها فتؤدي حقها** ...))

٤ ــ أن يؤدي الى الآخرين حقوقهم التي اعتدى عليها أيام انحرافه ، سواء كان اعتدائه على أموالهم أو أرواحهم أو دينهم أو أعراضهم أو كراماتهم ، فيجب عليه أن يستوهب منهم ويرضيهم

---

(١) الضمير يعود الى الذنب .

(٢) ويؤدي التائب هذين الفقرتين في الخطوة الثانية كما عرفت .

بقدر استطاعته "١" ٠٠٠ وقد لا يتمكن من ارضائهم لسبب ما "٢" ، فما عليه الّا أن يكثر من الاستغفار والاعمال الصالحة والتصدق نيابة عمن اعتدى على حقوقه ، فانه ليس ببعيد على كرم الله تعالى أن يشمله برحمته ومغفرته الواسعة فيرضي خصمائه عنه يوم القيامة حينما يجده في الدنيا مخلصا في توبته ، صادق السريرة في انابته ٠

ذكرت هذه الفقرة في حديث الامام أمير المؤمنين (ع) في قوله ((**أن تؤدى الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عزّوجل أملس ليس عليك تبعة** ٠٠٠)) يعنى من تلك الحقوق ٠

٥ ـ اعتزال ذوي الاخلاق السيئة والابتعاد عن أصدقاء الشر وخاصة اولئك الذين كانوا سببا لانحرافه ، وبالمقابل ينبغي له أن يفتش عن الاخيار ، ويقصد مجالسهم ويتخذ منهم أصدقاء جدد له ، ويطلب منهم ارشاده ونصيحته ، ويظهر لهم قبول ذلك منهم ٠٠٠ ذكر ذلك الامام الصادق (ع) بقوله : ((**ويعتزل قرناء السوء** ٠٠٠))

٦ ـ أن يبتعد عن جميع الاجواء الاجتماعية والفكرية وغيرها التي كانت تسبب له الوقوع في المعاصي كالدخول الى دور السينما ومجالس اللّهو ، وأماكن السباحة وحدائق النزهة المبتذلة ٠ وان يتجنب قراءة الكتب والصحف والمجلات والنشرات التي تثير في نفسه كوامن

---

(١) ولعلماء الاخلاق هنا كلام طويل أعرضت عنه لاهداف تربويه ٠

(٢) كموت من اغتابه ، أو كالفقر وعدم قدرته على ارجاع ما سرقه أو كخوف القتل ان أخبر الزوج انه زنى بزوجته أو غير ذلك ٠

الشهوة المريضة وتوجد في نفسه الشوق الى المحرمات التي كان مولعا بها قبل تنوبته ٠

والى هذا المعنى أشار الامام الصادق (ع) بقوله ((**ويحبس نفسه عن الشهوات ٠٠٠**))

٧ ـ أن يسأل الله سبحانه الثبات على خط التوبة النصوح وعدم الرجوع الى ممارساته المنحرفة القديمة ٠٠٠ وهذه الفقرة التربوية تعتبر عند أهل العرفان والاخلاص من أهم مقومات الثبات على التوبة النصوح ٠ وهي كذلك من أبرز علائم الاخلاص في طلب التوبة من الله سبحانه ٠ ولهذا كان الامام زين العابدين (ع) يقول في دعاء التوبة :

((اللهم وانه لا وفاء لي بالتوبة الّا بعصمتك ، ولا استمساك بي عن الخطايا الّا عن قوتك ، فقوني بقوة كافية وتولني بعصمة مانعة ، اللهمّ أيما عبد تاب اليك وهو في علم الغيب عندك فاسخ لتوبته وعائد في ذنبه وخطيئته ، فاني أعوذ بك أن أكون كذلك ، فاجعل توبتي هذه توبة لا أحتاج بعدها الى توبة ، توبة موجبة لمحو ما سلف والسلامة فيما بقي ٠٠)) "١"

وقد نصّ على هذه الفقره التربويه الامام الصادق (ع) في قوله :

---

(١) الصحيفة السجادية / دعاء التوبة ٠

((ويستغيث الى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويحصمه في العود الى ماسلف .. ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرّائه وضرائه ...))

٨ ـ أن يتروى في كل خطوة أو كلمة يريد أن يقوم بها لئلا تصدر منه بعض الانحرافات التي كان قد اعتاد على ممارستها قبل التوبة ، ويمكن أن نستوحي هذه الفقرة من العبارة التالية للامام الصادق (ع) في قوله ((ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة..)) فان من أهم مقومات مجاهدة النفس الأمارة بالسوء هو سيطرة الانسان على حركاته وسكناته وجميع مشاعره وجوارحه سيطرة قيادية ناجحة ، بحيث لا يسمح لها أن تنحرف عن تعاليم السماء والقيم العليا فى الحياة .

٩ ـ أن لا ينهار أمام مغريات الشهوات ولا يسقط عن درجة التائبين عندما تتهيأ أمامه دواعي الانحراف . فالانسان اذا كان منحرفا ثم تاب لا يعني هذا انه سوف لا يواجه بعد ذلك عوامل الانحراف وأجوائه في حياته ، بل هو معرض دائما الى الامتحان الالهي وخاصة الانسان المؤمن كما قال الله سبحانه :

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)) "١"

---

(١) العنكبوت / ٢ .

فينبغي على التائب المخلص في توبته أن يكون صلبا تقيا أمام زخارف الدنيا وشهواتها المحرمة ، وأن يكون ورعا يخشى الله في السر والعلانية فان ذلك دليل واضح على صدق توبته ، كما يقول الامام الصادق (ع) ((ان يثبت عند المحن كيلا يسقط عن درجة التوابين فان ذلك طهارة من ذنوبه وزيادة في عمله ورفعة في درجاته ، قال الله عزّوجلّ : ((وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ··))

١٠ ــ ان يكثر التائب من الاعمال الصالحة بعد التوبة سواء كانت هذه الاعمال الصالحة ((**عبادية روحية**)) أو ((**اجتماعية خيرية**)) وبهذا الصدد قال علماء الاخلاق : انه لا يكفي لمحو آثار المعاصي التي انطبعت في القلب مجرد التوبة منها ، بل لا بدّ من محو آثارها بنور الطاعات اذ كل معصية صدرت من الانسان ارتفعت منها ظلمة الى قلبه ، فاذا تراكمت ظلمات المعاصي على القلب صارت رينا ، كما قال الله سبحانه ((**كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون**))[1] فاذا تراكم الرين وطال زمانه تحول الى سجيه في السلوك فينطبع على القلب أثره ((**وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**)) [2]

فالتائب لا يكفي لاصلاح نفسه مجرد تركه للمعصية بل لا بدّ له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه ، وطريقه ذلك هو أن يتبع السيئة بالحسنة ، فكما ترتفع الى النفس ظلمة من المعاصي

---

(١) المطففين / ١٤ ·
(٢) التوبه / ٨٧ ·

فتجعلها سوداء مظلمة ، فكذلك يرتفع نور من الطاعات واجتناب المحرمات فينورها ، وبهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي ، لأن المرض هنا عولج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت الى القلب لا يمحوها الا نور يرتفع اليه من حسنة تضاد "١" تلك السيئة التي ارتكبها ، والى هذا المعنى أشار القرآن الكريم بقوله ((ان الحسنات يذهبن السيئات))"٢". وروى عن النبي (ص) بهذا المعنى قوله : ((اتبع السيئة الحسنة تمحها)) "٣"

وهذا هو العمل الصالح الذي دعى اليه القرآن الكريم كثيرا حينما كان يخاطب أصناف المنحرفين عن هدي الله تعالى ويدعوهم للتوبة من ذنوبهم . فكانت أكثر آياته التي تدعوهم للتوبة تختم بحثهم على العمل الصالح بعد رجوعهم الى الله تعالى .

وهذا في تصوري أفضل اسلوب تربوي يمرن التائب على الطاعات بعدما كان معتادا على ممارسة المحرمات ، وهو في نفس الوقت أفضل طريقة عملية لتثبيت كراهية المعصية في نفس التائب الذي كان مولعا بالمحرمات .

وهذه جمله من الايات القرآنيه التى تدعو المذنبين الى العمل الصالح

---

(١) لا نريد بالتضاد هنا معناه المنطقي ،بل نريد معناه العام خلافا لما ذهب اليه بعض علماء الاخلاق من ضرورة مقابلة النفاق - مثلا - بالاصلاح بين الآخرين .. وهكذا باقي المحرمات ،فان هذا الرأي لا يستفاد من النصوص التي دلت على مقابلة السيئة بالحسنة لمحوها .

(٢) هود / ١١٤ (٣) جامع السعادات /ج٣،ص٦٣

بعد التوبه فانها كلها تؤكد هذا البعد التربوى الذى أشرنا اليه :

قال سبحانه :

((الآ الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فاولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم)) "١"

((الآ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم)) "٢"

((٠٠ الآ من تاب وآمن وعمل صالحا فاولئك يدخلون الجنه ولا يظلمون شيئا)) "٣"

((٠٠ الآ من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما)) "٤"

((٠٠ ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا)) "٥"

((٠٠ الآ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله وأولئك مع المؤمنين)) "٦"

وأشار الامام أمير المؤمنين (ع) في حديثه السابق الى هذه الفقرة التربوية بقوله : ((٠٠ أن تعمد الى اللحم الذي نبت على

---

(١) البقره / ١٦٠ (٢) آل عمران / ٨٩
(٣) مريم / ٦٠ (٤) الفرقان / ٧٠
(٥) الفرقان / ٧١ (٦) النساء / ٦٤

السحت فتذ يبه بالاحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جد يد ٠٠ وأن تذ يق الجسم ألم الطاعة كما أذ قته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول استغفر الله))

الخطوة الرابعة :

المراقبة الذاتية والمحاسبة اليومية

التائبون الذ ين كانوا معتاد ين على ارتكاب المعاصي ليس من السهولة أن يتخلوا عنها بسرعة ، فالعادة مهما كان نوعها تتحول بمرور الزمن وبكثرة ممارستها والمداومة عليها الى سجيه تشبه السجايا الطبيعية في سلوك الانسان ولهذا قيل أن العادة طبع ثان ٠٠ فهو وان تركها عن قناعة ولكن ليس من البعيد جدا أن يقع فيها عن غفلة مرة ثانية ، فيرجع بعد ذلك الى ماكان عليه من انحراف وحب وامتهان لها ٠٠ ومن هذا المنطلق كان لابدّ من دخول عامل تربوي رابع في منهج التوبة النصوح ، وتكون مهمة هذا العنصر التربوي هو تثبيت التائب على توبته فيبقيه على طريق الاستقامة ويعوده على الالتزام بالطاعات ومجانبة المحرمات ٠

وتطلق التربية الاسلامية على هذا العامل التربوي اسم(**المراقبة الذاتية والمحاسبة اليومية**) ٠

ومعنى ((**المراقبة**)) هو أن يتابع الانسان نفسه ويراقب ظاهرها وباطنها ويلاحظها طول يومه حتى لا تقدم على شيء من المعاصي ، ولا تترك شيئا من الواجبات .

ومعنى ((**المحاسبة**)) هو أن يعين في كل يوم وليلة وقتا يحاسب فيه نفسه بعد أن يوازن بين حسناته وسيئاته التى عملها في ذلك اليوم فان وجدها مقصّرة في طاعة أو مرتكبة لمعصية عاتبها ولامها لوما عنيفا ووبخها توبيخا شديدا وقهرها على بعض الطاعات عقابا لها على تقصيرها ، وان وجدها قد أتت بجميع الطاعات ولم ترتكب المحرمات في طول ذلك اليوم شكر الله تعالى على ذلك وطلب منه العون والتوفيق في الاستمرار على هذا الحال .

ولا تختص هذه العملية التربوية اليومية ((**بالتائبين**)) فقط ، وانما هي ضرورية لكل مسلم متعبد لله ومتمسك بحبل التقوى ، وتتأكد ضرورتها بالنسبة للتائبين ... ولهذا نجد النصوص الاسلامية الواردة في الحث عليها عامة لا دليل فيها على توجيه الخطاب الى خصوص التائبين فقط .

قال سبحانه :

((**ولتنظر نفس ماقدمت لغد ...**)) "١"

فان المراد بهذا النظر هو محاسبة الانسان المسلم لنفسه ، كما فسّر ذلك علماء الاخلاق .

---

(١) الحشر / ١٨ .

وقال رسول الله (ص) :

((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا)) "١"

وقال الامام الكاظم (ع) :

((ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فان عمل حسنة استزاد الله تعالى ، وان عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه)) "٢"

والخلاصة : ان التائب مهما كان معتادا على ارتكاب المعاصي واقتراف السيئات فانه بمجرد أن ينشغل بعد التوبة بمجاهدة نفسه وفقا لبرنامج ((**المحاسبة والمراقبة**)) فان الله سبحانه حتما سيأخذ بيده الى طريق الصالحين ويرفعه الى درجات المتقين والمقربين من ساحة قدسه جلّ وعلى ، كما وعد في كتابه الكريم حينما قال :

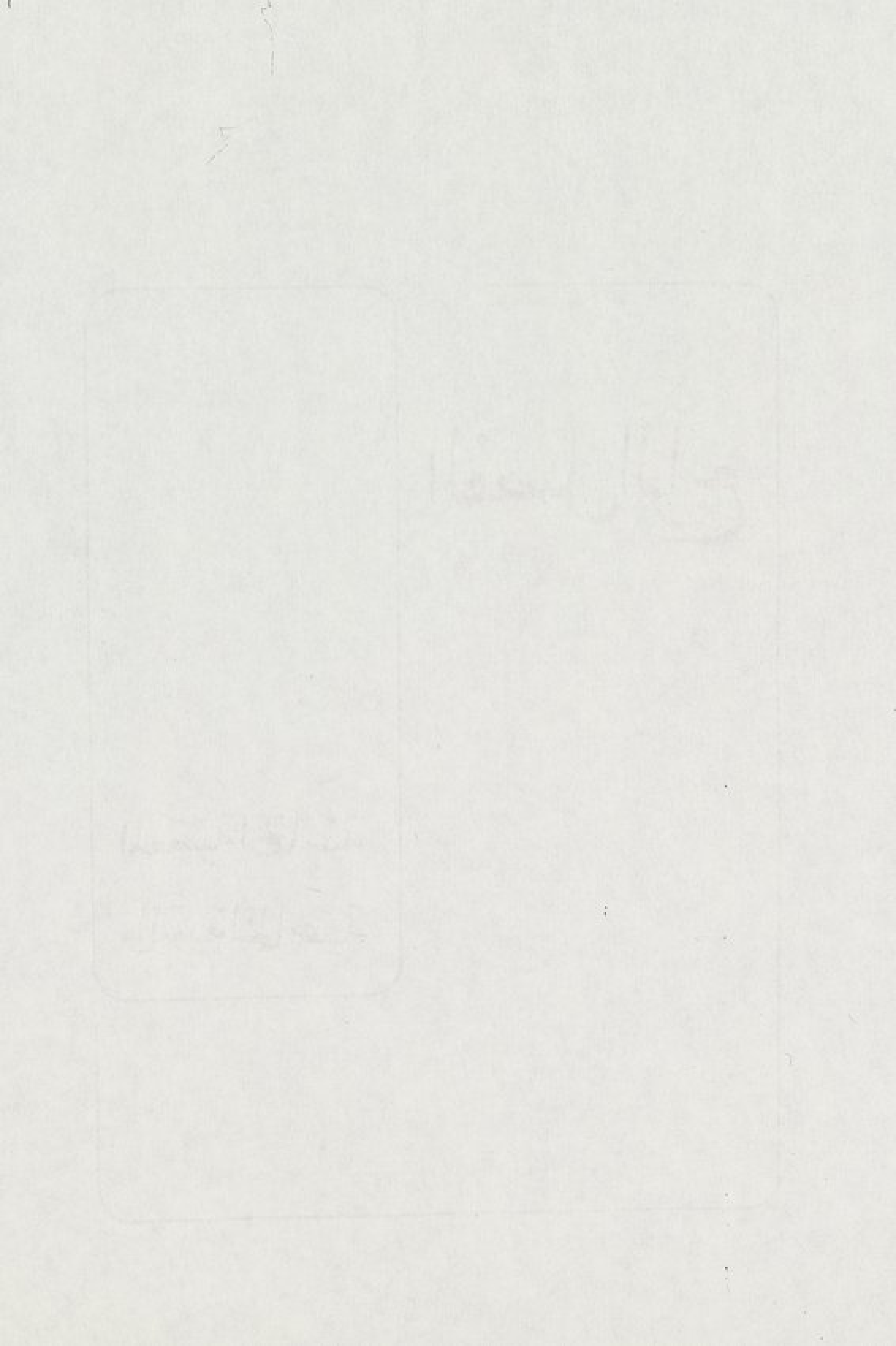
((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)) "٣"

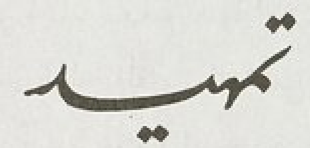
---

(١) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٩١ .
(٢) = = ، ص ٩٢ .
(٣) العنكبوت / ٩٦ .

الفصل الرابع

المعصية الجماعيّة
والتوبة الجماعيّة





تمهيد

يؤمن علم الاجتماع بأن الانسان اجتماعي ومدني بالطبع، وهذا يعني الاعتراف المسبق بعدم قدرة الانسان للقيام بجميع حاجاته وتوفير جميع متطلباته الضرورية في الحياة ، مالم يعش في وسط اجتماعي يكفل له ذلك ويتعاون مع أفراده لتيسير شؤون حياته "1" •

ويؤكد علماء القانون والاجتماع من جهة أخرى على انه لا يمكن لأي مجتمع العيش في حياة آمنة عادلة مستقرة مالم تحكمه قوانين صالحة وأنظمة واضحة ومحددة لدى أبنائه ، وعلى ضوء هذه القوانين والانظمة تحفظ مصالح الجميع في المجتمع • فاذا تمرد أعضاء هذا المجتمع على أنظمتهم المتعارفة وعلى القوانين التي تسودهم فسوف يكون انهيار مجتمعهم وتفكك عراه وسيادة الفوضى والظلم والفساد بين أوساطه نتيجة حتمية لهذا التمرد الجماعي العابث •

ان هذه الحقائق التي ينادي بها علماء الاجتماع والقانون اليوم ، لم تكن غريبة على الاسلام ولا جديدة على تفكيره الاجتماعي ، على الرغم من سابقية الاسلام في ولادته التاريخية مكتشفي هذه الحقائق بقرون عديدة ••• نعم يفترق الاسلام عن علم القانون والاجتماع في أمرين

---

(١) الاسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي / ص٢٧ بتصرف •

رئيسيين "١" :

((**الاول**)) في ايمانه بعدم قدرة الانسان على تشريع الانظمة والقوانين التي تحفظ مصالح الفرد والمجتمع... فهو يرى ان هذه العملية التشريعية من صلاحيات الله وحده .

((**الثاني**)) في فهمه للحياة وطريقة تفسيره للظواهر الحياتية والاجتماعية المختلفة ، فهو لا يؤمن بانفصال ذلك كله عن القدرة الالهية في تصريف الامور المادية والاجتماعية والمعنوية للانسان .

كما تذهب الى ذلك الفلسفة المادية والماركسية منها على الخصوص ، ولهذا فان الاسلام حينما تحدث عن انهيار الامم القديمة سياسيا أو اقتصاديا أو أخلاقيا ، أو انكسارها عسكريا ، فانه اعتبر جميع ذلك نتيجه حتمية للمعصية الجماعية ولتجاوز هذه المجتمعات البشرية والامم والشعوب الضالة للقوانين والقيم السماوية التي جاء بها الانبياء عبر التاريخ .

قال الله سبحانه :

((**ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجائتهم**

---

(١) من غير المتصور اختلاف الاسلام عن هذين العلمين في أي مجال من مجالاتهما ، وانما جاء الاختلاف بسبب سيطرة الإتجاهات الحضارية المادية المعاصرة في توجيه حركة هذين العلمين ، الأمر الذى أبعدهما عن رسالتهما العلمية في الحياة ، ولهذا فاننا نعتقد ان الاختلاف بين الاسلام وهذين العلمين كاتجاهين حضاريين لاينحصر بما ذكر فقط ، بل يشمل الكثير من التفاصيل .

رسلهم بالبينات وماكانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين ، ثم جلعناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون)) "١"

وهذا ماسوف نتعرف عليه بوضوح في الموضوعات الآتية من هذا الفصل الذى خصص لأجل الحديث عن المعصية الجماعية والتوبة الجماعية ، لأن الاسلام كما حذر أفراد الامة من الوقوع في المعاصي الفردية شارحا لهم أثرها في انحرافهم ودورها في تحطيم شخصيتهم فانه كذلك تحدث عن أضرار المعصية الجماعية على الامة محددا الطرق التربوية والقضائية التي يجب على المسلمين الاعتماد عليها من أجل الوقوف بوجه مخاطر المعاصي الاجتماعية وعدم السماح لها بالانتشار فى أوساط الامة ٠

الفهم الاسلامي للمعصية الجماعيّة

المعصية الجماعية في نظر الاسلام هي : كل معصية تحدث ضررا عاما في المجتمع سواء صدرت من فرد واحد ، أو جماعة ،ولتوضيح ذلك نقول :

ان وراء كل معصية تصدر من الانسان سبب يدفعه لارتكابها

---

(١) يونس / ١٣ ـ ١٤ ٠

ووراء هذا السبب هدف يصبو فاعل المعصية الى تحقيقه ، فكل معصية فردية يرتكبها الانسان سرا تتصف بهذين البعدين ((**السبب**)) و ((**الهدف**)) فاذا ارتكبها علانية اتصفت ببعد ثالث وهو ((**الاثر**)) أو ((**الموج**)) الاجتماعي الذى تخلفه في المحيط الذى تقع فيه ، وحينئذ تخرج عن كونها معصية فردية وتصبح في عداد المعاصي الجماعية – في نظر الاسلام – وان كان فاعلها انسانا واحدا ، ولهذا كان رسول الله (ص) يقول :

((ان المعصية اذا عمل بها العبد سرّا لم يضر الّا عاملها ، فاذا عمل بها علانية ولم يغير عليه أضرت بالعامة)) "١"

فالموج الاجتماعي والأثر السيء الذى تسببه المعصية في الامة هو المقياس الاساسي الذى يعتمده الاسلام للتمييز بين المعصية الجماعية والفردية ، فكل معصية لا تتصف بهذه الصفة فهي معصية فردية حتى لو صدرت من جماعة خاصين ما دام قد ارتكبوها بالسر وتكتموا عليها ولم يحدث لها موج في المجتمع ، وبامكاننا أن نستلهم هذا الفهم الاسلامي للمعصية الجماعية من حديث للامام أمير المؤمنين (ع) قال فيه :

((ان الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة اذا عملت الخاصة بالمنكر سرّا من غير أن تعلم العامة ، فاذا

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤٠٧ .

عملت الخاصة بالمنكر جهارا فلم تغير ذلك العامة
استوجب الفريقان العقوبة من الله عزّوجل)) "١"

ومن الطبيعي ان يختلف الموج السلبي الذى تتركه المعاصي الاجتماعية في الامة ـ تبعا لاختلاف نتائجها المدمرة وآثارها السيئة على النفس والمجتمع ـ من معصية الى أخرى ، ولكن مهما كان الموج السلبي محدودا لا يخرج المعصية العامة عن كونها معصية اجتماعية مادامت مرتكبه علانية ، فلا يعتبر الاسلام معصية الفرد داخل أسرته علانية ـ مثلا ـ معصية فردية ، وانما يعتبرها معصية عامة ، لما لها من موج فاعل فى السطح الاجتماعي للامة ، وان كان في حدود الوسط الاسروي الضيق ، فالاسره ـ كما نعلم ـ هي الخليّة الاولى للمجتمع، فلا بد ـ اذا ـ أن تنتقل سلبيات هذه المعصية ـ التى مورست داخلها من غير تكتم عليها ـ الى الأسر الاخرى ذات العلاقة الصميمية معها كالاقارب والاصدقاء والجيران ٠٠ وهذه النكتة هي فى الواقع من جملة نكات الاختلاف بين الاسلام وبين علماء الاجتماع الذين لا يرون فى مثل هذه الانحرافات الفردية السافرة بعدا اجتماعيا في الامة نظرا لصدورها ـ حسب فهمهم ـ من فرد واحد وليس من طبقة اجتماعية أو وسط اجتماعي معين في الامة ، على العكس من الاسلام الذى يؤمن بمشاركة المجتمع للفرد في معصيته هذه ، لأنه كان شاهدا عليه حين اقترفها علانية متحديا جميع أفراده وقيمه وقوانينه

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص٤٠٧ ٠

ومقدساته ، ومن هذا المنطلق نددت النصوص الاسلامية بأفـــراد المجتمع الذين تمارس بحضورهم وفي مجالسهم معصية ((اهانة المؤمن الفرد)) من بعض الاشخاص المنحرفين في الامة ، واعتبرت هـــذه النصوص الحاضرين في مثل هذه المجالس شركاء العاصي في آثامـــه وانحرافه ، ان لم يقوموا بمسؤوليتهم الشرعية تجاهه ، ويروى ان رسول الله (ص) كان يقول :

((من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينتصر له فلـم ينتصر ، أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق)) "١"

كما وردت بهذا المضمون روايات كثيرة عن أهل البيت عليهـم السلام .

اَضرار المعصية الجماعية

اتضح بأن المعصية الجماعية هي التى تترك ورائها تأثيـــرات سيئة على المجتمع ، الآ أن حجم الآثار السلبية في المعصيـــة الاجتماعية ، مرتبط الى حد كبير بنوعيتها ، وبما تنطوي عليـه مـن مفاسد وأضرار عامة ، كما هو مرتبط باسلوب ممارستها بشكل مكشـوف أمام المجتمع ، فالآثار السلبية للغيبة ـ وهي احدى المعاصـــي

---
(١) جامع السعادات / ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

الاجتماعية كذلك ـ ربما تكون أقل خطرا على حياة المجتمع من الاضرار والنتائج السيئة التي تسببها ظاهرة التبرج ، والمرأة المتبرجة على الطريقة العربية ربما تكون أقل افسادا وضررا للمشاعر الجنسية عند الشباب الهائج التائه من الفتاة المتبرجة على الطريقة الاوربية .

فالمعصية الاجتماعية اذا تختلف في تأثيراتها السيئة على النفس الانسانية ، وفي الاوساط الاجتماعية تبعا لضخامة الموج الذى تخلقه في المحيط الذي تتواجد فيه ، وتبعا لقوة فاعليتها في النفس والمجتمع .

والاسلام في تفسيره لسلبيات الانحراف الاجتماعي يخطو خطوة أعمق وأبعد من هذه النتائج السلبيه الجزئيه لآثار المعصية الاجتماعيه ، فحينما يستعرض اطروحته الشاملة في تفسير المعاصي الاجتماعية وبيان أثرها على حركة المجتمعات التاريخية فانه يؤمن بأن انهيار المجتمعات البشرية فكريا وانحطاطها أخلاقيا وانكسارها سياسيا وعسكريا ماهو ـ في الغالب ـ الّا لون من ألوان العقوبات الربانية التي تحل بهذه المجتمعات بسبب معاصيها العامة وطغيانها وكفرانها بأنعم الله تعالى .

وعلى ضوء هذه الاطروحة الشاملة في تفسير المعاصي الاجتماعية يؤمن الاسلام بأن أكثر الكوارث الطبيعية المدمرة كالزلازل والفيضانات والهزات الارضية التى تحل بالأمم والشعوب الضالة ماهى الّا نتيجة حتمية لرفض هذه الأمم والشعوب لنور الوحي وصرخات الأنبياء .

ويمضي الاسلام يؤكد — من خلال هذه الاطروحة — على خطر المعاصي الاجتماعية على مبادئ الخير والفضيلة في الامة ، ويقرر أخيرا حقيقة مرعبة حينما يقول : ان هذه المعاصي العامة هي أكبر خطر على وجود الامة لأنها حينما تتفاقم وتستشري وتستحكم فيها فانها حتما ستعرض وجودها كله اما الى الاستبدال أو الزوال .

وهذه النصوص القرآنية بين أيدينا وجها لوجه تقرر هذه الحقيقة بكل وضوح ، قال الله سبحانه :

((ان لا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا)) "١"

وقال : ((واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا)) "٢"

وقال : ((وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا)) "٣"

وقال : ((كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم)) "٤"

وقال : ((فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)) "٥"

---

(١) التوبة / ٣٩ (٢) الاسراء / ١٦ — ١٧
(٣) الكهف / ٥٩ (٤) آل عمران / ١١
(٥) النحل / ٥٢

وقال : ((ذلك بأن الله لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) "١"

والروايات التي نقلت عن أهل البيت (ع) حول أضرار المعصية الجماعية جائت موضحة لمعاني القرآن ومفسرة آياته في المعصية العامة

قال أمير المؤمنين (ع) :

((وأيم الله ماكان قوم فى خفض عيش فزال عنهم الّا بذنوب اقترفوها ، لأن الله ليس بظلام للعبيد))"٢"

وقال الامام الصادق (ع) :

((ماأقرّ قوم بالمنكر بين أظهرهم لا يغيرونه الّا أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)) "٣"

وقال عليه السلام فى حديث آخر :

((ان الله عزّوجلّ بعث نبيا من أنبيائه الى قومه وأوحى اليه : ان قل لقومك : انه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب الى ماأكره ، الّا تحولت لهم عما يحبون الى ما يكرهون وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره الى ماأحب الّا

---

(١) الانفال / ٥٣ .

(٢) اصول الكافى / ج ٢ ، ص ٦١ .

(٣) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤٠٨ .

تحولت عما يكرهون الى ما يحبون)) "١"

وقال الامام علی بن موسى الرضا (ع) :

((كلما أحدث العباد من الذنوب مالم يكونوا يعملون أحدث الله لهم من البلاء مالم يكونوا يعرفون)) "٢"

ويظهر من هذه النصوص ان الاسلام قد أعطى – في تفسره للاضرار التى تسببها المعصية الاجتماعية قانونا ثابتا وبعدا الهيا شاملا يتحكم في كل المسيرة الانسانية ، وبهذا التفسير الرّباني للمعصية الجماعية تعلن الاطروحة الاسلامية عن اختلافها في تفسير الظواهر الاجتماعية وحركة التاريخ الحضاري للانسان عن النظريات الفلسفية المادية وخاصة تلك التى تعلل التحول الاجتماعي بكل تقلباته الايجابية والسلبية عبر التاريخ البشري – بالصراع الطبقي وتطور وسائل الانتاج !!

ونحن لو افترضنا صدق هذا التفسير المادي للتاريخ على الظواهر الاجتماعية في حياة الشعوب ، فكيف يمكن أن نتصور صحته بالنسبة للكوارث الطبيعية التى تحل بالأمم والشعوب بسبب اعراضها عن منهج السماء ، وتنكرها لهدي الانبياء ونتيجة لسلوكها في خط الضلال ، كما حدثنا القرآن عن أمم وشعوب غابرة سادت ثم بادت بسبب رفضها لنور السماء ودعوات الأنبياء .

---

(١) اصول الكافی / ج ٢ ، ص ٢٧٤ .
(٢) = = = ، ص ٢٧٥ .

والعقاب الالهي الذى أشارت اليه الآيات والروايات السابقة هو لون من ألوان النتائج السلبية التى تسببها المعصية الجماعية في الامة . وقد يكون هو آخر النتائج السلبية التي تسببها هذه المعصية العامة في الامة .

وهذا العقاب الرباني حينما يحل بالامة ـ بسبب انحرافها وفسادها وطغيانها لا يختص بالظالمين من هذه الامة وحدهم ، بل يعم أبناء المجتمع قاطبة على اختلاف انتماءاتهم العقائدية وهوياتهم السياسية ومراكزهم العلمية والاجتماعية ، وعلى اختلاف خصائصهم النفسية والسلوكية ((فحينما حل التيه ببنى اسرائيل نتيجة ماكسب هذا الشعب بظلمه وطغيانه وتمرده فلم يختص هذا العقاب الالهي بخصوص الظالمين من بنى اسرائيل ، وانما شمل حتى موسى (ع) شمل أطهر الناس وأزكى الناس وأشجع الناس في مواجهة الظلمة والطواغيت، نعم شمل موسى (ع) لأنه جزء من تلك الامة ، وقد حلّ الهلاك بها فتاهوا أربعين سنه ، وكان نبى الله موسى (ع) معهم فى هذا التيه)) "١"

وحينما حلّت الانتكاسة العسكرية بجيش المسلمين في معركة أحد لم تختص نتائجها السيئة بأولئك الذين كانوا يرابطون فوق الجبل وتركوا حماية أخوانهم ـ وهم في قلب المعركة ـ ونزلوا متهالكين على

(١) السنن التاريخية في القرآن الكريم / ص ٦٠ .

الغنائم بل شملت النتائج السلبية لهذه المعصية حتى رسول اللـــه (ص) الذى كسرت رباعيته وجرح وسقط في ميدان القتال ، حتى ظن بعض الصحابة انه قد مات فولى هاربا من ساحة المعركة ، وكذلــك شملت سلبيات هذه المعركة أتقى الصحابة الذين يقاتلون جنبا الــى جنب مع رسول الله (ص) حتى أعادوا الغلبة للمسلمين .

وعندما اغتصب الحاكم المفروض يزيد بن معاوية موقع القيادة من أصحابه الشرعيين في الامة فان العقاب الالهي الذى نزل بالمسلميـن نتيجه سكوتهم على هذا الاعتصاب وعلى منكرات هذا الطاغوت الخليع الخمار ، وبسبب استسلامهم للهوه وعبثه وطغيانه لم يختص بأولئـــك الساكتين عن انحرافه وباطله ، ولم يختص بالظالمين من أعوانــــه ولا بالمتخاذلين من أبناء المجتمع الاسلامي آنذاك ، بل شمل أطهــر أبناء الامة وأفضلهم علما وتقوا وحكما ، شمل الامام الحسين كما شمــل كوكبة من خيرة أبناء ذالك العصر ، من حفاظ القرآن وحملة السنة !!

وكذلك في حياتنا المعاصرة ، حينما نزل البلاء بالمجتمــع العراقي نتيجة تخاذل أبنائه عن نصره الدين والعلماء العامليــن والمجاهدين ، وبسبب تثاقل أهل العراق عن مواجهة تعســف العفالقة الصليبيين وظلمهم الذى تجسد فى القضاء على القيــم والشعارات الدينية ومحاولة الغاء دورها الاسلامى الفاعل في تربيــة المسلمين كما تجسد في انتهاك الاعراض والاعتداء على كرامــات الناس ... فان البلاء لم يحل بالمتخاذلين والمتعاونين مع السلطــة

البعثية الكافرة فحسب ، وانما شمل كذلك أطهر أبناء العراق وأبرز قياداته وأكثرها تقوى وعلما وجهادا ، وفي طليعتهم رجل الفقه والفكر والجهاد والتقوى المرجع العظيم السيد محمد باقر الصدر ٠

انه بلاء الهي عام يكشف عن غضبة الهية عارمة على مجتمع اختار طريق المهادنة مع الطواغيت ، أو سار في خط المساندة للسلطة الظالمة التي أغضبت الله في حكمها وظلمها ٠٠٠ وهذا البلاء قانون رباني تتعامل به دائما ارادة السماء مع ارادة أهل الارض ، حيث لا تطابق بين الارادتين ، أو عندما تنحرف وتزيغ ارادة أهل الارض عن طريق الرسول المنذر بهذا البلاء ، وهذا القانون ثابت لا استثناء فيه "١" فاذا نزل شمل أطهر أبناء الامة كذلك ، وهو نتيجة حتمية لتخاذل وتثاقل أي مجتمع عن نصرة الدين وسكوته عن المنكرات الاجتماعية التي تمارس بشكل مكشوف ومفضوح بين أبنائه ، قال الله سبحانه :

((**واتقوا فتنه لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب**)) "٢"

والعقاب الالهي هذا والذي يحل بالامة كنتيجة حتمية لاستسلامها للظلم والطاغوت أو بسبب انحرافها وارتكابها لما حرم الله عليها يمكن تقسيمه الى نوعين :

الأول : عقاب الهي غير مباشر ــ ان صحّ هذا التعبير ــ وهو

---

(١) الّا قوم يونس (ع) فقد دفع الله سبحانه عنهم عذابه لتوبتهم اليه
(٢) الأنفال / ٢٥ ٠

يكون على أشكال وصور مختلفه ، فتاره على شكل عقاب سياسي من قبل الحاكم الظالم والسلطة الدكتاتورية الفاسدة التي تتحكم بالمجتمع ، وأشار القرآن الى هذا اللون من العقاب الالهي بقوله :

((واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا)) "١"

وتارة يحل هذا العقاب الالهي في الامة على شكل غلاء اقتصادي بسبب تلاعب المترفين والرأسماليين بمقدرات المجتمع الاقتصادية ومراكزه وأسواقه التجارية ، وكذلك يحل على شكل ظلم وجور وتعسف في الحياة السياسية يعاني منه أبناء المجتمع شتى الويلات بسبب تسلط الطواغيت والمتجبرين بالحكم عليهم مما يفقدهم الأمن والسلامة على حياتهم ويصبح المجتمع قاطبة يعيش دائما في حاله خوف وهلع من حكامه ، كما أشار القرآن الى ذلك بقوله :

((وضرب الله مثلا قرية كانت آمنه مطمئنه يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)) "٢"

وقد يحل هذا الخوف والجوع الذى أشارت اليه الآيه بسبب

---

(١) الاسراء / ١٦ _ ١٧ ٠

(٢) النحل / ١١٢ ٠

الفتن والحروب والاقتتال الداخلي الدائم في هذا المجتمع الذي كفر بأنعم الله فأذاقه الله ذلك جزاء كفره وطغيانه .

ومرة يكون هذا العقاب الالهي ـ غير المباشر ـ في صورة ضياع في صحراء جرداء وعلى شكل تيه مجتمع وشعب بكامله سنين طويلة في أرض قاحلة نتيجة تخاذله عن نصرة الحق وعدم استجابته لارادة قياداته الحكيمة العادلة المسددة من قبل السماء ، كما حصل لشعب بني اسرائيل الذين تاهوا فى صحراء سيناء أربعين سنه ، وكانت تلك القيادات الالهية معهم في ذلك التيه الشاق .

الثاني : عقاب الهي مباشر يجسد غضب الله تعالى وسخطه فيحل بالشعوب والأمم التي أعرضت عن نور هدايته ، وذلك عن طريق حلول الزلازل فيهم ، أو مسخهم قردة وخنازير ، أو اكتساح مدنهم بالفيضانات والطوفان ، أو بصورة هزّات أرضية تبتلع قراهم ومدنهم وتمسح معالمها من الوجود ، أو على شكل براكين نارية تندلع من تحت اقدامهم فتحرقهم جميعا ، أو كوارث طبيعية وكونية أخرى كالرياح العاتية ، وغيرها كما حدث لأقوام وشعوب مختلفة في الماضي البعيد من تاريخ البشرية كقوم لوط وعاد وثمود وكقوم نوح وغيرهم ، ولنترك المجال للقرآن يحدثنا عن هذا اللون من العقاب الالهي المباشر الذي كان ينزله الله سبحانه بالأمم والشعوب الظالمة التي كانت تواجه دعوات الأنبياء بالرفض والمحاربة والاستكبار . فلننصت خاشعين الى هذه الآيات التى تحدثنا عن ذلك :

((٠٠٠ كذّبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)) "١"

((ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّناهم في الارض مالم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين)) "٢"

((والى مدين أخاهم شعيبا ، فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الارض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)) "٣"

((وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ٠٠٠)) "٤"

ونلمح في الآية الأخيرة صورة العذاب الالهي المباشر الذى يحل بالأمم والشعوب التي ترفض هدى السماء وكلمات الانبياء ٠٠ نعم نلمحه في صيغة قانون رباني ثابت تتعامل على ضوئه ارادة الله مع ارادة الانسان حينما يطغى وينحرف ويكفر ويعبث في الارض فسادا ٠

---

(١) الحاقة / ٤ _ ٧ (٢) الأنعام / ٦
(٣) العنكبوت / ٣٦ (٤) الطلاق / ٨

عِلاج المعصيَة الجمَاعيّة

يتضح من البحث السابق بأن المعصية الجماعية تتميز عن المعصية الفردية في شمول سلبياتها لقطاع كبير من أبناء المجتمع ، وهذا الفارق بينها وبين المعصية الفردية هو الذى جعل الشارع الاسلامي يهتم في مكافحتها ومواجهتها بشتى الأساليب والوسائل التربوية والقضائية من أجل تطويقها والقضاء على أضرارها ولو بأعنف الأساليب ، فبالوقت الذى نهت الشريعة الاسلامية عن متابعة وملاحقة الأفراد الذين يحتمل انهم يرتكبون المحرمات سرّا ، ولم تسمح بفضحهم وكشفهم لأنها اعتبرت ذلك من جملة أساليب اشاعة الفساد في المجتمع الاسلامي ، فانها قامت على العكس من ذلك فيما يخص محاربة المنكرات والجرائم التى لها بعد اجتماعي في الأمة ، فأمرت بمواجهة هذه المنكرات والمفاسد العامة وكشفها للجميع حتى لو حاول أصحابها التكتم عليها ، وكان الهدف منها الاطاحة بالنظام الاسلامى أو تهديد أمن المجتمع الاسلامي والنيل من سلامته واستقراره ، فيجب على المسلمين جميعا وعلى السلطة الاسلامية فضح مثل هذه المنكرات ومحاربتها بأعنف الأساليب ولو بالمواجهة المسلحة اذا اقتضى الأمر

ذلك ٠

وقد وضع الاسلام خطة تربوية شاملة لتطويق المعصية الجماعية ، والتقليل من آثارها ونتائجها السلبية على المجتمع أن لم يجتث جذورها السيئة نهائيا ٠

وللاختصار سوف نتحدث – هنا – عن أبرز اسلوبين تربويين اعتمدهما الاسلام على الصعيد الاجتماعي لمواجهة خطر وأضرار المعصية الجماعية ٠

الاسلوب الأول :

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على جميع المسلمين بصورة عامة على نحو الكفاية ((وخلاصة هذا الواجب : هو ان الله سبحانه ألزم المسلمين كافة بملاحقة عملية الانحراف الاجتماعي ، سواء منه الانحراف الديني في شؤون التمرد الفردي على الله في عباداته ومعاملاته ، أو الانحراف الاجتماعي في السلوك الجماعي الذى يبتعد عن خط الرسالة ، أو الانحراف السياسي المتمثل في الطغيان السياسي ضد الضعفاء والمضطهدين ٠٠ أو الانحراف الاقتصادي الذي يقوم على أساس الاحتكار والاستغلال والغش والربا وأكل أموال الناس بالباطل وغيرها ٠

وفي الجانب الآخر من هذا الواجب أراد الله من المسلمين أن يساندوا الأوضاع السليمة المستقيمة في المجتمع ، تلك التى تلتقى مع مبادىء الخير والفضيلة وقيم السماء في أي شأن من شؤن الحياة

وبذلك يخلق الاسلام في قلب المجتمع المطيع رقابة ذاتية لا تخضع لتكليف رسمي ولا لوظيفة تقليدية ، بل تخضع للشعور الايماني بضرورة حماية العقيدة والرسالة الالهية من التشويه والتلاعب وحماية المسلمين من ألوان الانحراف)) "١"

وأولى الاسلام هذه الفريضة المقدسة عناية خاصة لما لها من أهمية قصوى في تحصين التجربة الاسلامية من تشويه المنافقين للحكم الاسلامي وتلاعب المصلحيين في ادارة الدولة وسياسة البلاد ، كما ان لهذه الفريضة دورا كبيرا في تحصين المجتمع الاسلامي من ألوان الانحراف الاجتماعي ، ولهذا اعتبرها الاسلام أهم الفرائض الاجتماعية في أحكامه وواجباته على المسلمين ولذلك كان أمير المؤمنين (ع) يقول :

((... وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الّا كنفثة في بحر لجّي)) "٢"

وقال قائد المستضعفين الامام الخميني في وصف هذه الفريضة :

((وهما – يقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – من أسمى الفرائض وأشرفها وبهما تقام الفرائض ووجوبهما من ضرورات الدين ، ومنكره مع الالتفات

---

(١) الاسلام ومنطق القوه / ٥٧ – ٥٨ باختصار .
(٢) نهج البلاغه / ص٥٤٢ .

بلازمه من الكافرين)) "١"

وورد الحث في القرآن الكريم وعلى لسان النبي (ص) العظيم كثيرا على ضرورة الالتزام بهذه الفريضة وعلى أهمية اقامتها في المجتمعات الاسلامية من أجل استمرارية تطبيق أحكام الاسلام وسيادته في الحياة ، ومن أجل استقامة المسلمين في خط الدين وتعبيدهم لرب العالمين ، فقال الله سبحانه :

((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) "٢"

وقال سبحانه :

((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))"٣"

وقال رسول الله (ص) :

((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان))

وقال (ص) في حديث آخر :

((ان الله يبغض المؤمن الضعيف الذى لا دين له !! فقيل : وما المؤمن الضعيف الذى لا دين له ، فقال : الذى لا ينهى عن المنكر)) "٣"

---

(١) تحرير الوسيلة/ج ١ ،ص٤٦٢ (٢) آل عمران / ١٠٤

(٣) وسائل الشيعه / ج ٦ ، ص٣٩٧

ان الحكمة من وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع المسلمين هو تطويق المعاصي والمفاسد والمنكرات ذات البعد الاجتماعي بهدف القضاء على أضرارها ومساوئها ، وانقاذ المجتمع الاسلامي من نتائجها وأضرارها العامة الوخيمة من غير فرق بين المعصية الكبيرة أو الصغيرة منها كما يقول الامام الخميني حفظه الله "١"

واذا احتاج النهي عن المنكر الى اجتماع مجموعة من المسلمين ــ من أجل القضاء عليه ــ واشتراكهم في موقف واحد ضد فاعله يصبح من الواجب الشرعي على المسلمين تشكيل هذه المجموعة من ذوي الكفائة وتزويدها بالامكانيات المناسبة لمواجهة هذا المفسد والأخذ على يده ، كما أفتى بذلك الامام الخمينى حفظه الله ، حيث قال :

((لو توقف اقامه فريضة أو اقلاع منكر على اجتماع عده في الأمر أو النهى لا يسقط الوجوب بقيام بعضهم ، ويجب الاجتماع في ذلك بقدر الكفائه)) "٢"

وهذه الفتوى تعكس لنا عن مدى اهتمام الاسلام في تطويق الانحرافات الاجتماعية والقضاء عليها . كما تكشف لنا عن حكمة الاسلام ودقه تخطيطه وتنظيمه الاجتماعي في محاربة المنكرات ذات الأبعاد العامة بما لها من أثر سلبي كبير يهدد حياة المجتمع الاسلامي بالانحراف ، ومن هذه الفتوى يفهم بأن الاسلام يعتبر حجم النهي

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ١ ، ص ٤٦٥ ، مسألة ١٤ .
(٢) تحرير الوسيلة / ج ١ ، ص ٤٦٤ .

عن المنكر الاجتماعي ينبغي أن يكون مساويا وحجم الموج السلبي الفاعل في الأمة لهذا المنكر الاجتماعي ، ومتناسبا تناسبا طرديا مع مساحة الأثر السيئ الذي يسببه هذا المنكر على السطح الاجتماعي للأمة ٠

ولهذا السبب ذاته ميز الاسلام بين درجات الأجر والثواب التي يمنحها الله سبحانه ـ يوم القيامة ـ للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، فأعطى من ينهى عن منكر اجتماعي ذا تأثير سلبي واسع في الأمة أجرا عظيما وثوابا كبيرا يتناسب مع حجم الموج السلبى الذي يتركه هذا المنكر على السطح الاجتماعي في الامة ، ان لم يزد عليه ٠

فالسلطان الجائر ـ مثلا ـ وان كان فردا واحدا في الأمة ولكن معصيته الاجتماعية ذات تأثير سلبى كبير على الامة ، ربما يصل في بعض الاحيان ـ ضرر معصيته هذه ـ الى جميع أبناء المجتمع حتى أقاربه وأهل بيته ، فهو يهدد وجود أمته كلها بالدمار والبوار وخاصة حينما يتحكم بقيّمها ومقدساتها وكرامتها واقتصادها بأساليب سياسية ظالمة وبقوانين جائرة متعسفة ، لذلك اعتبر الاسلام مقاومة مثل هذا الطاغية المتجبر من أعظم الأعمال الصالحة التي تقرب فاعلها الى الله سبحانه ، وان قائد هذه المقاومة التي تنهى عن منكر اجتماعى واسع النطاق سوف ينال من الله يوم القيامة أعظم الدرجات ، كما روي ذلك عن الامام الباقر (ع) حينما قال :

((من مشى الى سلطان جائر فأمره بتقوى الله ووعظه وخوّفه ، كان له مثل أجر الثقلين ، الجن والانس

ومثل أعمالهم)) "١"

الاسلوب الثاني :

في محاربه المنكرات والجرائم الاجتماعية معاقبة المرتكبين لهذه المعاصي الاجتماعية علانية أمام المجتمع الذى مورست الجريمة أو المعصية الاجتماعية في وسطه . وذلك عن طريق اقامة العقوبات القضائية كالحدود والتعزيرات والقصاص بمشاهدة أفراد المجتمع الذي ينتمي اليهم مرتكب الجريمة الاجتماعية ، وهذه الطريقة من العقاب سوف تردع المتأثرين بأجواء هذه الجريمة التي عوقب بسببها هذا الجاني أو العاصي ، وهذا الاسلوب التربوي هو أبلغ اسلوب في ردع الآخرين عن هذه المعصية ، فلاتتركهم يفكرون في الاقدام عليها خوفا من السقوط الاجتماعي الذى سيلاقونه من القضاء الاسلامي العادل أمام الجماهير التي تعرفهم .

الا ان الشريعة الاسلامية لم تأمر بمعاقبة جميع مرتكبي المعاصي الاجتماعية بهذه الطريقة المكشوفة للمجتمع ، بل اقتصرت في هذا اللون من العقاب القضائي على مرتكبى كبائر الجرائم الاجتماعيه ذات الآثار الاجتماعية الوخيمة والخطرة جدا على الأمة ، وفي ذلك حكمة خاصة تظهر أبعادها في اطروحة الاسلام المتكاملة في تربية المجتمع الاسلامي وابعاده عن أجواء الفساد والشهوات الساقطة ، ولامجال ـ هنا ـ للحديث عن ذلك لأنه يخرج بنا عن صلب الموضوع .

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤٠٦ .

التوبة الجماعية

والتوبة الجماعية هي من جملة أساليب الاسلام في علاج المعصية الجماعية ، فحينما يصبح الطغيان والفساد والانحراف عن القيّم الالهية وعن مبادئ الحق والعدالة هي الظاهرة المستشرية في حياة الامة أو المجتمع ، فحينئذ تصبح هذه التوبة واجبة على جميع أفراد تلك الامة أو ذلك المجتمع ، بما فيهم من الصالحين والاخيار .

وتختلف التوبة الجماعية عن التوبة الفردية بوجوب اعلانها أمام الوسط الاجتماعي الذي مورست فيه المعصية ، بعكس التوبة الفردية ، فانه لا يشترط فيها ذلك بل وردت أخبار مستفيضة عن المعصومين (ع) تحث أصحاب الذنوب الفردية على التستر بالمعاصي والتوبة منها سرّا .

ومن النصوص التى حاول بعض الفقهاء أن يستفيدوا منها وجوب التظاهر بالتوبة الجماعية في المحيط الاجتماعي الذي ارتكبت فيه ، هذه الاية المباركة :

((ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، الآ الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب

الرحيم)) "١"

فهذه الآية تتكلم عن معصية جماعة يكتمون ما أنزل الله سبحانه على رسله من البينات والهدى ، ولا يطلعون الناس على ذلك لأغراض خبيثة في نفوسهم ، فهم يضلون الناس عن هدى الله الذى أرسله لعباده بواسطة أنبيائه٠ وهذه الآية عامة لا تختص بالاحبار أوالرهبان من أهل الكتاب دون غيرهم كما توهّم بعض المفسرين ، نعم لقد كان أهل الكتاب يفعلون ذلك ولا زالوا كذلك فهم يعرفون مما بين أيديهم من الكتاب مدى مافي عقيدة الاسلام ودين محمد (ص) من صدق ، ومع ذلك يكتمون هذا الذى بيّنه الله لهم من الكتاب،فهم ومن فعل مثلهم من المسلمين وقادة العالم الاسلامي في أي زمن كانوا ان كتموا آيات الله وهداه الذى أرسله للناس جميعا ، واذا أخفوا ذلك لسبب من أسباب الاخفاء الكثيرة الخبيثة سوف تصب عليهم لعنة الله وما أكبرها من لعنه !! ثم تتبعها لعنة اللاعنين ، لأن معصيتهم هذه تسبب أكبر ضرر عام لعباد الله ، فلا بد اذا أن تلحق لعنة الله سبحانه لهم لعنة كل من حرم من هدي الله ونور رسله بسبب هذا الاخفاء ، ويستثنى من هذا اللعن الخالد أولئك الذين تابوا من هذه المعصية الرهيبة ، وكفوا أيديهم عن اضلال الناس فهؤلاء يفتح الله سبحانه لهم نافذه التوبة المضيئة بنور الرجاء والمغفرة وتكون توبتهم مشروطة القبول باظهار حالهم السابق للناس وانهم كانوا

---
(١) البقره / ١٦٠ ٠

يعملون بالضلال للاضلال ، ثم يظهروا ماكتموه من البينات والهدى ليطّلع عليه الناس ويقتبسوا من نوره أنوضّاء ماينير لهم الدرب بعدما كانوا يغرقون في ظلام دامس · فاذا فعلوا ذلك قبل الله سبحانه توبتهم وليتوجهوا بعد ذلك لاصلاح أنفسهم من فساد معصيتهم العظيمة هذه ليكونوا في عداد الصالحين ···

وهكذا فسّر الآيه السيد الطباطبائي في ميزانه ، فقال :

((والمراد بتقييد توبتهم بالنبيين أن يتبين أمرهم ويتظاهروا بالتوبة ، ولازم ذلك أن يبينوا ماكتموه للناس ، وانهم كانوا كاتمين والّا فلم يتوبوا بعد)) "١"

وقال صاحب المسالك الشيخ الكاظمي ، وهو بصدد تفسير الآية :

(("وبينوا" أي أظهروا التوبة ليعلم انهم تائبون ويعلم الناس ان مافعلوه كان قبيحا ، ومن ثم قيل : من ارتكب المعصيه سرّا كفاه التوبه سرّا ، ومن أظهر المعصية يجب أن يظهر التوبة ··· أو المراد ببينوا ، التوبة باخلاص العمل ···)) "٢"

ويظهر من كلام الشيخ الكاظمي انه كان مترددا في فهمه لكلمة ((بينوا)) ، فمراه تاره يقول ((بينوا)) أظهروا التوبة ليعلم انهم

(١) الميزان / ج ١ ، ص٣٩٠ ·

(٢) مسالك الافهام / ج ٤ ، ص٢٥٠ ·

تائبون .. ونراه تارة أحرى يقول ((أو المراد ببينوا التوبة باخلاص العمل ..)) لذلك نجده غير مصرّ على الحكم بوجوب التظاهر بالتوبه لمن أظهر المعصية ، ومن هذا المنطلق نسب هذا الحكم الى ((القيل)) وهو اسلوب يعتمده الفقهاء لعرض الرأي الضعيف ، وكلا الايضاحين اللذين قدمهما حول كلمة ((بينوا)) غير واضحين ولا هما ينسجمان مع سياق الآية .

أما قوله الأول ((بيّنوا أي أظهروا التوبة ليعلم انهم تائبون ..)) فهو مرفوض ، لأن ((بيّنوا)) بمعنى أظهروا ، والاظهار هنا غير ((التوبة)) . وإنما شيء آخر ، وهو ((ان يظهروا للناس ماكتموه من البينات والهدى)) والتوبة سابقة عليه ، فبعد توبتهم فيما بينهم وبين الله سبحانه يظهرون ماكانوا يكتمون من البينات والهدى كما يدل على ذلك سياق الآيه ((الآ الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ..)) ويلازم اظهار ماكتموه اظهار توبتهم للناس ، ويعنى ذلك ان لهؤلاء توبتين ، **الاولى** فيما بينهم وبين أنفسهم ، **والثانية** أمام الناس عندما يظهروا لهم ماكانوا يكتمون من البينات والهدى ، والتوبة الاولى هي الدافع والمحرك للتوبة الثانية "١"

أما قوله الثاني ((أو المراد ببينوا التوبة باخلاص العمل ..)) فهو غير مستقيم المعنى ، الآ اذا حاولنا فهمه بما ينسجم مع كلام السيد

---

(١) التوبة الاولى لم يصرح بها السيد الطباطبائى ولاغيره ، وهو اشتباه فيما أتصور .

الطباطبائي ، ولكن بعد أن ندخل في أبواب التأويل والتعديل فيه ٠

فالآية واضحة كما فسرها السيد الطباطبائي ، نعم اذا كان هناك مجال للتردد في فهم هذه الآية فانه ينحصر في امكانية انتزاع حكم عام منها بوجوب التظاهر بالتوبة لكل معصية ظاهرية "١" ، وهو مااصطلحنا عليه ((**بالمعصية الجماعية**)) ٠

ولكن هذا لاداعي له ، لأن أصل وجوب التوبة على المذنبين أمر ارشادي وليس مولويا ، أي العقل هو الذى يستقل في ادراك هذا الوجوب ، فاذا وردت نصوص شرعية تدل على وجوبها فان هذه النصوص تكون مؤكدة لصحة ماأدركه العقل ، والتظاهر بالتوبة لمن تظاهر بالمعصية كذلك حكم ارشادي ٠٠ونحن بامكاننا أن نكتشف حكما عاما يدل على وجوب التظاهر بالتوبة لمن ارتكب المعصية علانية عن طريقين :

الاول : من خلال استقراء الاحكام الشرعية التي بينها الاسلام للتائبين من ذنوبهم التي اقترفوها علانية ٠

الثاني : من خلال استعراض سيره المتشرعة من أهل التوحيد "٢" وكيف كانوا يتوبون من ذنوبهم الاجتماعية ٠

---

(١) يصطلح الفقهاء على المعصية الاجتماعية (**بالمعصية الظاهرية**) ٠

(٢) قلنا من أهل التوحيد لأننا سوف نتكلم عن أساليب التوبة فى المعصية الاجتماعيه فى المجتمعات الدينيه الموحده التى سبقت الاسلام كتوبه قوم يونس (ع) وتوبه قوم موسى (ع) ولكن الكلام حول هذه المجتمعات لا يدخل فى دليل سيره المتشرعه وانما يشمل هذا الدليل كل توبه اجتماعيه وقعت فى عصر الرساله الاسلاميه فحسب ٠

الطريق الاول

الذى نستفيد منه حكما عاما يدل علىوجوب التظاهر بالتوبه لكل من كان متجاهرا بالمعصية من خلال استقراء الاحكام الشرعية التي حددت اسلوب التوبة للتائبين من ذنوبهم التي ارتكبوها علانية ، فاننا سوف نكتشف عموم هذا الوجوب من خلال هذه الاحكام الشرعية ، وهيفي الشريعة الاسلامية كثيرة جدا لا يمكن استعراضها كلها هنا ، لأنها تخرج بنا عن صلب الموضوع ولذلك سوف نذكر قسما منها على سبيل المثال ، وهي : ((**القاذف**)) وهو كل من رمى مسلما ((**بالزنا**)) أو ((**اللواط**)) بدون أن يقدم بينة شرعية على ذلك ، فهو ساقط العدالة ولا تقبل شهادته بين المسلمين "١" (الا اذا تاب، وتوبته أن يكذب نفسه عند من قذف عنده أو عند جمع من المسلمين أو عندهما.. فاذا كذّب نفسه وتاب تقبل شهادته اذا صلح) "٢"

و ((من اتهم مسلما بديته ، ونسبه الى الكفر أو الفسق في مجلس عام وتوبته تكذيب نفسه أمام من سمع ذلك منه)) ونظير ذلك

---

(١) مع عدم اللعان أو البينة أو اقرار المقذوف بصحة ماقذف به ، / راجع تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٤٢ .

(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٤٢ .

توبة المغتاب . فعليه اضافة الى ذلك ان كان في كلامه اتهام لدين المسلم أن يذهب الى من اغتابه ويستوهبه ويطلب منه المغفرة ، وكذلك توبة من استلم منصبا قضائيا بين المسلمين من غير استحقاق وأخذ يحكم بين الناس بالباطل)) فعليه لكي يتوب من معصيته هذه أن يتنحى عن كرسي القضاء ويعلن توبته للناس ويبين لهم مواطن الخطأ في حكمه حتى يرجع المتخاصمون الذين حكم لهم بالباطل الى قاض آخر عادل ايحكم بينهم بالحق فيما كانوا يختلفون ، وكذلك مثله من كان يفتي بغير علم ليضل عن سبيل الله فيجب أن يعلن توبته ، ويعلم من أفتاهم بالباطل بعدم صحة فتواه ، ونظير القاضي والمفتي كذبا من كتم آيات الله سبحانه كما بيّنت ذلك الآية الكريمه السابقة ، وكذلك توبة ((**القاتل**)) و ((**السارق**)) فيجب على الأول تسليم نفسه لأهل المقتول ، ويجب على الثاني اعلان توبته بارجاع ماسرقه الى أصحابه .. وغير ذلك .

وربّ قائل يقول : ان جريمة القتل أو السرقة حينما ترتكب بالسر فهي من المعاصي الفردية وليست من المعاصي الجماعية أو الظاهرية في المجتمع ، فليس من الصحيح وضعها في قائمة الجرائم الاجتماعية !

وهذا الكلام ليس صحيحا ، لأن هاتين الجريمتين من الجرائم التي لها أبعاد اجتماعية في الأمة ، لأنها ذات أضرار عامة في الحياة وآثارها تظهر ، وموجها يتفاعل في المحيط الاجتماعي الذي تمارس فيه حتى لو تستر فاعلها وراء الظلام ، وخلف الأسوار والاشجار ، فهي

اذا من المعاصي الاجتماعية وان ارتكبت سرّا ·

وينبغي هنا أن ننبه الى أن الفقهاء عامة اتفقوا على ان التوبة من بعض هذه المعاصي الاجتماعية لا يجب أن تكون ظاهرية اذا خيف من وقوع ضرر كبير بسبب كشف المذنب التائب عن هويته ، ولا أتصور ان هذا الحكم يشمل من كان يكتم آيات الله ويشترى بها ثمنا قليلا او يتستر عليها ابتغاء الفتنة ، فمثل هذا المجرم التائب لا يجوز له أن يبقى كاتما لهدى الله وبيناته مهما كان خوف الضرر كبيرا ·· أما هل يشمل هذا الحكم من كان يقضي بالباطل أو يفتى بغير علم أو غير ذلك من المعاصي التي ضررها يشكل خطرا كبيرا على مهمة الدين الالهي في الحياة ؟

فهذا ما ينبغي على الفقهاء أن يحققوا فيه ويقولوا كلمتهم حوله ·

الطريق الثاني

والطريق الثاني الذى نستفيد منه عموم الحكم بوجوب التظاهر بالتوبة من المعصية الظاهرية أو الاجتماعية ، وهو دراسة الواقع التطبيقي لهذا اللون من التوبة عبر تاريخ مجتمعات التوحيد ، وهو مايسمى في اصطلاح الفقهاء ((بدليل سيرة المتشرعة)) فان جميع التطبيقات التى مورست للتوبة من المعصية الجماعية في مجتمعات

التوحيد دلّت على ان هذا اللون من التوبه لم يكن يمارس بالخفاء أبدا وفي الواقع ان ممارستها بالخفاء لا يحقق أهدافها التربويه التي تتوخى رسالات السماء تحقيقها في المجتمع عندما تعلن في الوسط الذي ارتكبت فيه سواء كان هذا الوسط الاجتماعي محدودا أو واسعا ،واذا وجد من يمارس هذه التوبة بالخفاء فان ذلك لنص شرعي يبرر له ذلك كما أوضحنا ذلك في ((الطريق الاول)) .

ونحن ماإذا وقفنا على هذه التطبيقات التاريخية فاننا سوف نجدها تنقسم الى نوعين :

١ ـ تطبيقات فردية لتوبة من معصية جماعية ، وهذا النوع من التطبيقات يمثل صورا مختلفه لتوبات متعددة معلنة في المجتمع من قبل أفراد متعددين كانوا قد ارتكبوا معاص وانحرافات ذات أبعاد اجتماعية مختلفة في مجتمعاتهم ، وهذا النوع من التطبيقات لا نريد أن نطيل الكلام حوله لأنه في واقعه ماهو الّا تطبيق عملي عن الجانب النظرى للاحكام الشرعيه التي عرضنا بعضها في ((الطريق الأول)) ، ويدخل في هذا القسم من هذه التطبيقات توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن النبي (ص) في معركة ((تبوك)) وتوبة الخليفة الثالث مرّات عديدة "١" أمام الجماهير الثائرة عليه بسبب تفضيله أبناء عشيرته الأمويين على سائر المسلمين ، وعدم التزامه بسيره النبى (ص) وسياسته في الادارة والحكم ،

---

(١) الكامل لابن الاثير / ج ٣ ، ص ٨٢ .

وبسبب التزامه بسياسه مروان القبليه التى ثار ضدها المسلمون ٠

ويدخل في هذا القسم كذلك توبة بعض الخوارج بعد أن تمردوا على حكم أمير المؤمنين وقيادته ، وكذلك توبة الحر بن يزيد الرياحي ، وتوبة بشر الحافي في عصر الامام الكاظم (ع) ، وتوبة بعض المفسدين في الارض في الجمهورية الاسلامية في ايران الاسلام تلك التي نقلتها أجهزة الاعلام للامة ٠

٢ ـ تطبيقات اجتماعية واسعة تجسدت لهذا اللون من التوبة في مجتمعات متعددة من تاريخ البشرية الايماني ، وكانت هذه المجتمعات قد انحرفت عن خط الايمان وطريق الله ورفضت الاصغاء لدعوات أنبياء الله في بلادها ، فحق عليها العذاب الالهي ،وكانت على قسمين ، قسم منها تاب قبل نزول البلاء السماوي بفترة قصيرة مما سبب ارتفاعه عنها رحمة من الله بها، كقوم يونس وقسم منها لم يتب فحق عليها القول فعذبها الله سبحانه كما وعد وأنذر في كتبه ورسالاته والقسم الاخير على صنفين ، منها مجتمعات ومدن مسخ الله سبحانه أهلها أو مسح معالمها من الوجود بعذاب ماحق من الارض أو السماء كالطوفان أو الزلازل أو البراكين النارية المدمرة ، أوغير ذلك ٠٠٠ ومنها أمهلها الله سبحانه وعذبها في حياتها السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية على يد طواغيتها ، كما قال عزّوجل :

((وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها

ليمكروا فيها ، وما يمكرون الا بأنفسهم)) "١"

وهذا الصنف الأخير على قسمين كذلك :

((**الاول**)) : مجتمعات بقيت على ضلالها وفسادها وانحرافها فلم تتب الى رشدها رغم أنواع المحن والبلاء الذي يحل بها من الله سبحانه بسبب اعتكافها على معاصيها الاجتماعية .

((**الثاني**)) : مجتمعات استيقضت من غفوتها وطلّقت أيام الانحراف بعد أن حلّ بها عذاب الله سبحانه ، فاتّعظت بذلك ورجعت الى رشدها وتابت الى ربها من جرائمها الاجتماعية الكبرى ، كقوم موسى (ع) وكقوم سليمان بن صرد الخزاعي في الكوفة ، بعد استشهاد الامام الحسين (ع) في كربلاء ، ولنقتصر على سرد قصة هذه المجتمعات الثلاث التائبه .. أعنى ((**قوم يونس (ع)**))و((**قوم موسى (ع)**))و ((**قوم سليمان بن صرد الخزاعي**))

توبة قوم يونس ع.

قال الله سبحانه :

((**وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون** "٢"))

---

(١) الانعام / ٢٣ .

(٢) الصافات / ١٣٩ _ ١٤٠ .

هذه الآية ومابعدها تناولت قصة يونس (ع) ، ولم تتعرض لقصة قومه الّا اشارة خاطفة بالأخير ، وهذه الآيات في سورة الصافات مدخل مهم لمعرفة قصة يونس (ع) ، وخلاصتها :

ان يونس (ع) كان من المرسلين الى قومهم ، وكان قومه جمع كثير يزيدون على مائه ألف ، فدعاهم الى الايمان بما أرسله الله به .

فقابلوه بالرفض ، ولم يجيبوه الّا بالتكذيب والأذى ، وقد وعدهم من قبل بعذاب قادم ينزل بهم من الله سبحانه ـ كما أخبره ـ ان لم يؤمنوا به ، فلم يستجيبوا له ، وقرب موعد العذاب كما يعلمه يونس (ع) ، وهم مع ذلك لازالوا على ضلالهم عاكفون ، وعلى طريق انحرافهم سائرون ، فاعتزلهم يونس (ع) وخرج من قريتهم مغاضبا عليهم بدون أن يأذن له الله سبحانه بالخروج منهم كما أذن للوط (ع) وغيره من الأنبياء الذين أنزل البلاء والعذاب بأقوامهم .

ولما أشرف عليهم العذاب ولمحوه بأبصارهم أجمعوا على الايمان برسالة يونس والتوبة الى الله سبحانه مما ارتكبوا من محرمات واذى لنبيّه فكشف الله عنهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ، وقال سبحانه :

((فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الّا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين)) "١"

---

(١) يونس / ٩٨ .

وروي في تفسير العياشي عن الامام علي بن موسى الرضا (ع) حول طريقه توبتهم فقال :

((ان يونس أمره الله بما أمره ، فأعلم قومه فأظلهم العذاب ففرقوا بينهم وبين أولادهم وبين البهائم وأولادها ثم عجّوا الى الله وضجّوا فكف الله العذاب عنهم)) "١"

وهذا الحديث مختصر ، لأن يونس (ع) ليس معهم حينما تابوا وانما بقي يونس في القرى المجاورة لهم يلتقط أخبارهم ويستخبر عن حالهم ، فعلم ان العذاب لم ينزل بهم ، فلم يؤب اليهم ، بل ذهب على رسله وهو كله غضب وحزن عليهم ، وكأنه عليه السلام لم يعلم بايمانهم وتوبتهم بعده فطفق يقطع الفيافي والوديان والجبال متوجها الى ساحل البحر وأظنه ((البحر الأبيض المتوسط)) على ماتنقل روايات العهدين ، وكان يقصد قرية من القرى المطلة على الساحل الثاني من البحر ، فهو لا يصلها الّا عبر هذا البحر ، فلما انتهى به المسير الى مرافق السفن الجاثمة على سواحل الشام ركب البحر في سفينة مثقلة بالأمتعة ، فلما تحركت السفينة وصارت في الاعماق وأظلهم الليل ، فاذا بحوت ضخم يعترضها ، ففكروا بأن يتخلصوا منه ، فلم يهتدوا الّا بأن يلقوا اليه واحدا من ركاب السفينة ليبتلعه ، وتنجو السفينة بالباقين ، فجعلوا القرعة حكما بينهم لتعين

---

(١) الميزان / ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

لهم من يلقوه لهذا الحوت المهول ، فأصابت القرعة يونس ((**فساهم فكان من المدحظين**)) "١" ، فألقوه في البحر فابتلعه الحوت ونجت السفينة ـ ولكن الله سبحانه حفظه في بطن الحوت أياما وليال ،وعلم يونس(ع) ان ذلك بلاء له من ربه ، فلما استقر في الظلمات (ظلمة جوف الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل) أخذ ينادي بصوت عال في بطن الحوت مسبحا الله تعالى ((ان لا اله الّا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين)) فاستجاب الله دعائه وأمر الحوت أن يلفظه :

((**وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الّا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين**)) "٢"

((**فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون**)) "٣"

فقذفه الحوت على ساحل البحر وكان عريانا مريضا سقيما فأنبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين لتحميه بأوراقها العريضة من حرارة الشمس ومن الحشرات التى قيل انها لا تقرب هذا النوع من الشجر .

((**فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين**)) "٤"

---

(١) الصافات / ١٤١ (٢) الانبياء / ٨٧ ـ ٨٨
(٣) الصافات / ١٤٣ـ١٤٤ (٤) الصافات/ ١٤٥ـ١٤٦

فلما استقامت صحته أمره الله سبحانه مرة أخرى بالعودة الى قومه فاستقبلوه والتفوا حوله ولبوا دعوته وآمنوا برسالته وعقيدنه ، فمتعهم الله في الحياة الدنيا الى حين :

((وارسلناه الى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوافمتعناهم الى حين)) "١"

وفي قصة يونس (ع) عبرة عظيمة للعاملين الرساليين ، فيونس لم يصبر على قومه ولم ينتظر من ربه أمر الخروج منهم فخرج مغاضبا عليهم ضيق الصدر حرج النفس فأوقعه الله سبحانه في الضيق الذي تهون الى جانبه مضايقات المكذبين انه ضيق الظلمات في بطن الحوت المهول ٠

فمن يحمل أمانة الله للناس لابدّ ان يحتمل كل تكاليفها وان يصبر على التكذيب والايذاء من أجلها ، صحيح ان تكذيب الصادق الواثق مرير على النفس ثقيل على الاتقياء ، ولكنه بعض تكاليف الرسالة فلا بدّ اذا لمن يكلف بحمل مسؤولية السماء أن يثابر في ادائها وتبليغها ويصبر على اذاها ويتحمل ويثبت أمام انكار المنكرين وتكذيب المكذبين واتهامات المنافقين "٢" ٠

---

(١) الصافات / ١٤٧ ـ ١٤٨ ٠

(٢) لقد أسهبنا في قصة يونس لأنه عليه السلام كذلك يعتبر مذنبا في هذه القصة وقد رأيت كيف عاقبه الله سبحانه على ذنبه الاجتماعي هذا وكان يقول في الظلمات (٠٠ اني كنت من الظالمين) ومعصية يونس ليست كمعاصينا لأنه معصوم منزه عن ذلك بل معصيته هو تركه =

توبة قوم موسى (ع)

قوم موسى (ع) هم شعب بني اسرائيل ، هذا الشعب المتعِب الذى أثقل كاهل أنبياء الله بأنواع المآسي والتمرد الأليم ، وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء الذين تحملوا شتى أنواع العذاب النفسي والارهاق الجسمي من بنى اسرائيل نبى الله موسى (ع) ، هذا الرجل الذى كله ثوريه وحماس للعقيدة الالهية ، وكله غيرة على القيم الدينية ... وقد واجه موسى (ع) من قومه تكذيبا مريرا وامتحانا كبيرا ... كذبوا برسالته وعقيدته ، ووضعوه في مواقع الاختبار ليتأكدوا من صحة نبوته وهم يعلمون بصحتها ، وكأنهم مكلفون بانتخاب أنبياء الله الى الارض ، ومن ثم تطاولوا عليه حينما طلبوا منه دلائل تثبت حقيقه هيمنه الالوهيه على الوجود ، مع ماقدم لهم من براهين كثيرة ساطعة ، وأخذوا يتدللون عليه وعلى الله سبحانه كما يتدلل الطفل السيء التربية على والديه ، ومن سيئاتهم ولعلها أكبرها مع موسى (ع) عدم الاستجابة لأوامره القيادية وعبادتهم العجل من دون الله بمجرد أن فارقهم أربعين يوما لميقات كان له مع ربه .. وحينما وصل الكفر والطغيان في هذا الشعب الى هذا الحد ، أمره الله

= للأولى .

سبحانه على لسان نبيه بالتوبة ، فقال :

((واذ قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، انه هو التواب الرحيم)) "1"

وبعد أن أحس هذا الشعب المخادع بعظيم جنايته ، وكبير معصيته ، وشعر ان الله قد سخط عليه ، أعلن اطاعته الكاملة لنبيه موسى (ع) فأمرهم موسى بالتوبة الى الله تعالى من ذنوبهم وظلمهم أنفسهم ، وكانت طريقة توبة هذا المجتمع أعنف وأشد أساليب التوبة الجماعية في تاريخ مجتمعات التوحيد التائبة ، وأكثرها تأثيرا في قلع جذور الفساد والخبث من النفس والمجتمع ، انها طريقة الاقتتال بين الأخ وأخيه وجها لوجه من أجل أن يرضوا الله ، وبين الابن وأبيه والخال وأبناء أخته ، وهكذا ... ولنترك الامام أمير المؤمنين (ع) شبيه موسى (ع) في ابتلائاته ، نعم نتركه هو يصور لنا توبة هذا المجتمع العابث الذى ملأ التاريخ فسادا ، قال :

((ان موسى لما خرج الى الميقات ورجع الى قومه وقد عبدوا العجل ، قال لهم موسى : ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ! ! فقالوا له : كيف

---

(1) البقره / ٥٤ .

نقتل أنفسنا ؟ فقال لهم موسى : اغدوا كل واحد منكم الى بيت المقدس ومعه سكين أو حديدة أو سيف فاذا صعدت أنا منبر بني اسرائيل فكونوا أنتم متلثمين لايعرف أحد صاحبه فاقتلوا بعضكم بعضا ، فاجتمعوا سبعين الف رجل ممن عبدوا العجل الى بيت المقدس ، فلما صلّى بهم موسى وصعد المنبر أقبل بعضهم يقتل بعضا حتى نزل جبرائيل فقال : قل لهم ياموسى ارفعوا القتل فقد تاب الله لكم ، فقتل منهم عشرة آلاف ، وأنزل الله (ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم))) "١"

هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة وانه لتكليف صعب مرهق شاق أن يقتل الأخ أخاه ، فكأنما يقتل نفسه برضاه ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعه المنحرفة والارادة الضعيفة التي لا تتماسك عن شرّ ولا تتناهى عن منكر ، ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ماعبدوا العجل ،«واذا لم يتناهوا بالكلام ، فليتناهوا بالحسام وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التى تنفعهم وتربيهم»"٢"

---

(١) الميزان / ج ١ ، ص١٩٠ ــ ١٩١ ٠
(٢) فى ظلال القرآن / ج ١ ، ص٨٩ ٠

توبة أهل الكوفة

ومن التطبيقات التاريخية للتوبة الجماعية التى مورست في مجتمعات التوحيد هي توبة المجتمع الكوفي التى أعلنها بعد أن ساهم مع الأمويين في ارتكاب أكبر جريمة سياسيه في حياته ، تلك التى نقض فيها العهود والمواثيق التي كان قد قطعها على نفسه وقدمها لقائده وامام عصره الحسين (ع) ووعده فيها بالوقوف معه ضد حكومة يزيد بن معاوية الحاكم الاموي المفروض على المسلمين بالقوة ... !!

وطلب أهل الكوفة على لسان زعمائهم ورؤساء عشائرهم من الامام الحسين (ع) الاسراع اليهم بهدف استلام الحكم والاستعداد لمحاربة السلطة الاموية الظالمة فى الشام ، ولكن بمجرد أن وصل اليهم المبعوث الشخصي للامام الحسين (ع) مسلم ابن عقيل ، انقلبوا ضده على أثر تغيير جزئي في سياسة الادارة والحكم داخل الكوفة قام به عبيد الله بن زياد ، والى يزيد بن معاوية على الكوفة

ولم يتوقف هذا المجتمع السيء الحظ عند حدود الاساءه الى مبعوث الامام والمساهمه فى قتله أو على نقض العهود والمواثيق التي قطعها على نفسه وارسلها للحسين فحسب ، بل وانما أقدم مع ذلك على ارتكاب أفضع جريمة اجتماعية في تاريخ الاسلام يوم قام

بمجزرته الدموية الرهيبة الظالمة فقتل قائده الامام الحسين وأقـــرب الناس الى رسول الله (ص) في عصره وأوجه المسلمين علما وتقـــوى وأجدرهم في القيادة والخبرة السياسية ٠٠ وقتل ـ كذلك ـ معـــه كوكبة من أهل بيت النبى (ص) وأخرى من خيرة أصحابه المخلصين ، وكان ذلك بطريقة مخزية جبانة يعرق الجبين من وصفها ويستحي القلم من الحديث عنها ٠

وبعد هذه الجريمة الكبرى بفترة قصيرة جدا شعر أبناء هـــذا المجتمع المنحرف بفداحة جريمتهم وضخامة مأساتهم على الصعيـــد العقائدي والسياسي والعاطفي ، فأخذت بعد ذلك تشتعل نيـران الندامة والحزن والاسف في قلوب وصدور الكوفيين قاطبة ، وصمم قسم كبير منهم على التوبة من جريمتهم الاجتماعية هذه ، فتلاقوا بالتـــلاوم والتنادم على مقتل ابن بنت رسول الله (ص) ووجدوا أنفسهم أنهم قد أخطأوا خطأ كبيرا بدعوته اليهم وعدم اجابتهم له الى أن قتل بجانبهم عطشانا غريبا مظلوما فلم ينصروه ، بل ساعدوا على قتله ٠٠٠ !! ورأوا انه لا يغسل عنهم ذلك الجرم الكبير الاّ بالتوبة وبقتل من قتل الحسيـن (ع) ، أو القتل فيه ، فتحركوا سنه خمس وستين بالكوفة ، وفزعـــوا الى خمسة نفر منهم هم وجوه أهل الكوفة يوم ذاك ، وهم : سليمـــان ابن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبه الفزاري ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الازدي ، وعبد الله بن وال التميمي ، ورفاعه بن شـــداد البجلي ٠

وتحرك هؤلاء القادة بدورهم في حملة اعلامية واسعة النطاق في داخل الكوفة في سبيل توعية هذا المجتمع المارق عن الدين واشعاره بعظيم جنايته بحق الرسالة وأهل بيت الرسالة ، وتحسيسه بضرورة التكفير عن هذه الجريمة ، فاستجاب لهم عدد كبير من أهل الكوفة ، وشكّلوا حركة عسكرية فدائية أطلقت على نفسها اسم ((**حركة التوابين**)) .

وقبل أن يخرجوا من الكوفة وينطلقوا الى ساحات القتال ، قام شعرائهم وخطبائهم يلقون الكلمات والابيات التي يتحدثون بها عن عظيم جنايتهم بحق الرسول والرسالة وتكلموا عن أهدافهم من هذه الحركة ، ومما قاله شاعرهم عبد الله بن الأحمر ، وهو يحرض الكوفيين على الخروج الى القتال والتوبة :

صحوت وودعت الصبا والغوانيا — وقلت لأصحابي أجيبوا المناديا
وقولوا له اذا قام يدعو الى الهدى — وقبل الدعاء لبيك لبيك داعيا "١"

وقال في موضع آخر :

خرجن يلمعن بنا ارسالا — عوابسا يحملننا أبطالا
نريد أن نلقى بها الاقيالا — القاسطين الغدر الضلالا
وقد رفضنا الولد والأموالا — والخفرات البيض والحجالا
نرضي به ذا النعم والمفضالا "٢"

---

(١) ، (٢) مروج الذهب / ج ٣ ، ص ١٠١ .

ووقف فيهم قائدهم الكبير والصحابي الجليل سليمان بن صرد الخزاعي خطيبا ، فقال :

((أيها الناس من كان خرج يريد بخروجه وجه الله والآخرة فذلك منا ، ونحن منه ، فرحمة الله عليه حيّا وميتا ، ومن كان انما يريد الدنيا فوالله ما يأتي فيء نأخذه وغنيمة نغتمها ماخلا رضوان الله ، ومامعنا من ذهب ولا فضة ولا متاع ماهو الّا سيوفنا على عواتقنا وزاد قدر البلغة ، فمن كان ينوي هذا فلايصحبنا))

فتنادى أصحابه من كل جانب :

((انّا لانطلب الدنيا ، وليس لها خرجنا ، انما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله نبينا)) "1"

ثم تحركوا باتجاه كربلاء ، حيث مصرع قائدهم الحسين (ع) وانتهوا الى قبره ، فلما وصلوا صاحوا صيحة رجل واحد ، فما روي أكثر باكيا من ذلك اليوم "2" ، فترحموا جميعا على الحسين (ع) واصحابه واعلنوا توبتهم عند قبره ، واقاموا العزاء والتنادم والتخاطب بالتلاوم عند القبر يوما وليلة كل ذلك وهم يبكون ويتضرعون ويتعبدون ويطلبون من الله تعالى العفو والمغفرة ، وكان مما قالوه عند قبر الامام الحسين

---

(١) الكامل لابن الأثير / ج ٣ ، ص ٣٤٠ .
(٢) = = = = : ص ٣٤١ .

(ع) :

((اللهم ارحم حسينا الشهيد بن الشهيد المهدي ابن المهدي الصدّيق ابن الصدّيق ، اللهم انا نشهدك انا على دينهم ... اللهم انا خذلنا ابن بنت نبينا (ص) فاغفر لنا مامضى منا ، وتب علينا فارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصديقين ، وانا نشهدك اننا على دينهم وعلى ماقتلوا عليه ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)) "١"

وقال شاعرهم عبد الله ابن الاحمر وهو واقف على قبر الحسين (ع) :

سقى الله قبرا ظمّن المجد والتقى بغربيه الطف الغمام الغواد يا
فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنيبوا فارضوا الواحد المتعاليا "٢"

ثم تركوا القبر بعد أن كان الرجل منهم يعود الى قبر الحسين كالمودع له ، فازدحموا عليه أكثر من ازدحامهم على الحجر الاسود "٣" وزحفوا بعد ذلك الى القتال الذي يطلبون فيه التوبة من الله تعالى وتجمعت قواتهم بالنخيلة ومن هناك تحركوا الى عين الوردة موقع معركتهم واشتباكهم مع الجيش الأموي حيث بدأ القتال بينهم مع قلة

---

(١) الكامل لابن الاثير / ج ٣ ، ص ٣٤١ .
(٢) مروج الذهب / ج ٣ ، ص ١٠١ .
(٣) الكامل لابن الاثير / ج ٣ ، ص ٣٤١ .

عددهم وعدتهم ، وكثرة عدوهم عددا وعدة ، وتلاحم الجيشان في معركة ضروس يقودها عبيد الله ابن زياد من جانب الامويين وسليمان بن صرد الخزاعي من جانب التوابين ، وكان سليمان يحث أصحابه للقتال بالشعارات الاسلامية ويحمسهم بكلمات التوبة ، فكان ينادي وهو يقاتل :

((عباد الله من أراد البكور الى ربه والتوبة من ذنبه فاليّ ..))[1]

وانتهت – مع الاسف – هذه الحركة المخلصة التائبة باستشهاد أكثر عناصرها بما فيهم قادتها الخمسة الابطال ، ولكنها بقيت على طول التاريخ مضرب الامثال عند المسلمين في الاخلاص لله سبحانه ، وفي الشجاعة ورباطة الجأش ومقارعة الصفاح ، فبالرغم من قله عددهم وعدتهم فانهم استطاعوا أن يفككوا الآلاف المؤلفة من الجيش الاموي ويشتتوا قواه ، وجعلوه يطلب المزيد من المدد والمساعدات العشكرية من الشام ، وهو دليل على انكسار هذا الجيش على يدي التوابين الابطال ، كما ذكر ذلك أكثر المؤرخين .

ومما يدل على ضعف جيش الشام – على ضخامته – في هذه المعركة هو انه كان يعرض – بين فتره وأخرى – شروطا وعهودا – على قادة التوابين – لايقاف القتال ، الّا ان التوابين كانوا يزدادون اصرارا على مواصلة القتال ايمانا منهم بضرورة التكفير عن ذنوبهم بالتوبة المخلصة الى الله سبحانه عن طريق الانتصار أو الشهادة . فحينما

---

(١) الكامل لابن الاثير / ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

عرض الامان لكرب الحميري آخر قائد للتوابين ، فانه رفض قبوله بقوة مع انه كان مثقلا بالجراح ، وان جنوده الباقين لا يزيدون عن المئة نفر، وقد ردّ على الذين عرضوا عليه الامان من قادة الامويين بكلمة خالده وعظيمه جدا ، قال لهم فيها :

((قد كنا آمنين في الدنيا وانما خرجنا نطلب أمان الاخرة))[1]

وهذا يدل على صدق نية التوابين واخلاصهم في طلب التوبة وهم في آخر لحظات الحياة .

الابعاد التربوية للتوبة الجماعية

من خلال العرض السريع لتاريخ المجتمعات التائبة الثلاث التي تحدثنا عنها سابقا يتضح بأن التوبه الجماعيه ذات أبعاد تربويه ايجابيه بعيدة الاغوار في النفس البشرية والمجتمع التائب ... انها انقلاب شامل وثورة اجتماعية حاسمة ، انقلاب مجتمع بكامله ضد عاداته وتقاليده وافكاره المنحرفة وثورة مجتمع اخلص في توبته الى الله سبحانه ، فثار على واقعه وعلى كل ألوان الفساد التي تزخر بها حياته وتتحكم في علاقاته ووجوده ومصيره .

ان الامة التائبة أمة امتلكت احساسا جماعيا عميقا وواع بواقعها

(١) الكامل لابن الاثير / ج ٣ ، ص ٣٤٢ .

الاجتماعي الغارق في الفساد والضلال وظلام الانحراف وانطلاقا من هذا الوعي الاجتماعي الشمولي أخذت تشعر بمرارة ومأساة هذا الواقع ـ بكل معاناته ـ وأخذت تدرك بأنه هو السبب الذي أبعدها عن الله سبحانه ، وان الله نساها لأنها نسته وابتعدت عن طريق هداه وسوف يعاقبها على انحرافها هذا عاجلا أم آجلا ٠٠ ولهذا اختارت أقرب طريق يعود بها الى الله سبحانه ، وهو طريق التوبة ،واتخذت قرارات حاسمه من أجل الانتقال بصورة سريعة من طريق الضلال الى طريق الاستقامة نحو الله ٠

ان هذا الشعور الايماني في المجتمع التائب يشمل ـ غالبا ـ أكثر أفراد الامة المنحرفة بسبب تحكم العقل الجمعي في حركتها الجديدة نحو الله سبحانه ، وفي شعورها بضرورة التكفير عن جرائمها الاجتماعية والعودة من جديد الى خط الايمان بقيم السماء ٠٠ ولذلك تكون توبه المجتمع ذات نتائج ايجابية أوسع وأعمق بكثير من التوبة الفردية وحتى أكثر فائدة تربوية للمجتمع من التوبة الفردية الاجتماعية كتوبة الثلاثة الذين تخلفوا عن النبى (ص) في معركة تبوك أو كتوبة الحر بن يزيد الرياحي ٠

واذا كانت التوبة الفردية طريق المذنب أو المجرم لاصلاح نفسه والرجوع الى الله سبحانه بعد أن يتّبع منهجا تربويا خاصا يضعه لنفسه من أجل أن يقلع منها ـ وبمرور الايام الطويلة ـ جذور الفساد ويزرع بمكانها حب الله سبحانه وحب القيم الالهية ليكون من الصالحين حقا ،

فان التوبة الجماعية لا تحتاج الى عمل تربوي متدرج الاساليب ولا الى أيام طويلة حتى تضع المجتمع التائب فى أجواء الاخلاص الكامل لله سبحانه ، وانما هي هجرة سريعة الى الله ونقلة مستعجلة من حياة اجتماعية تتحكم بها القيم المادية الى حياة عامرة بقيم السماء ، وتعاليم الأنبياء ، وان هذه النقلة السريعة ترتفع وبشكل خاطف بالمجتمع المجرم الجبان المتخاذل عن نصرة الحق ... نعم ترتفع بهذا المجتمع التائب كله الى أعلى درجات الاخلاص لله فترشحه رأسا الى نيل درجة الشهادة في سبيل الله ، وماأعظمها من درجة ، تلك التي لا يبقى معها ذنب.

وقد يتحول المجتمع التائب الى كتلة ثورية ونارية من مشاعل الايمان المضيئة في تاريخ مجتمعات التوحيد ، مشاعل تحرق نفسها لتضيء الدرب أمام الموحدين التائبين من أجيال المستقبل كما هو الحال في حركة التوابين الشهيرة .

انها حركة ايمانية مخلصة ، لم تقم لتحكم أو تتزعم ، بل انها قامت من أجل أن تموت على صخرة الحب الالهي في محراب الشهادة .

طريقة التوبة الجماعية

لم يحدد الاسلام اسلوبا عمليا وبرنامجا تربويا ثابتا للتوبة الجماعية . ونقصد بالتوبة الجماعية هنا توبة المجتمع المذنب أو الامة المذنبة ، ولا نقصد التوبة الفردية الجماعية ، فان هذه التوبة قد حدد لها ذلك كما أشرنا الى أساليبها المختلفة حسب كل معصية منها في أول موضوع ((التوبة الجماعية)) .

وطريقة التوبة الجماعية التي حددها الله سبحانه لبني اسرائيل لا تصلح برنامجا ثابتا لعامة التوبات الاجتماعية للمجتمعات التي تنحرف عن نهج السماء ، لأن المجتمعات تختلف في جرائمها الاجتماعية وانحرافاتها العامة من مجتمع الى آخر .

وعلى كل حال انها طبيعة الاسلام المرنة التي ترفض تجميد أساليب التربية الاجتماعية في قوالب ثابتة وأساليب محددة ، فكان من الطبيعي أن يوكل الاسلام هذه المهمة الكبرى بكل تفاصيلها للمجتمع التائب نفسه ، لأن هذا المجتمع يدرك جيدا نقاط الضعف في تركيبته الاجتماعية المنحرفة كما يعرف أسباب فساده وطغيانه وضلاله وانحرافه ، فاذا هو بنفسه يستطيع أن يرسم منهاج توبته لأنه يعرف دواء دائه ، كما فعل المجتمع الكوفي الذي وجد نفسه متخاذلا

عن نصرة الامام الحسين (ع) والدفاع عن قضيته المقدسة ، فصمم على دفع ثمن هذا التخاذل بطريقة الشهادة الانتحارية ٠

فالتوبة الجماعية قرار جماعي ، والقرارات الجماعية يصنعها غالبا العقل الجمعي الذي يتأثر ـ غالبا ـ بالهزات العاطفية ،فالمجتمع المنحرف حينما يصل الى مستوى اتخاذ هذا القرار الذي يكشف عن رغبه حقيقية لديه ، تدل على رجرعه عن غيّه وفساده وطغيانه وضلاله ٠٠ وحينما يصل المجتمع الى هذا المستوى من الوعي يستطيع أن يرسم لنفسه منهاجا لتوبته الجماعية ٠٠٠ نعم ، الاسلام يعمل في هذه الحالة على توجيه هذه المشاعر الهائجة من أجل تحصينها من الانحراف ، فيلقي المسؤولية على كل من له موقع رسالي وايماني في هذا المجتمع ، فيحثه على توجيه هذه المشاعر الايمانية توجيها صحيحا في ممارسة التوبة الجماعية بالشكل الذي يتناسب وأهداف الرسالة الاسلامية في الحياة وبالشكل الذي يحقق رضى الله سبحانه ، ويكون البرنامج التربوي الذي يحدده المؤمنون الرساليون لمجتمعهم التائب مستوحا من خلال المفاهيم والافكار التربوية التى أثارها الاسلام حول طريقة التكفير عن الذنوب بشكل عام ، ومستفادا كذلك من خلال الواقع التطبيقي للتوبة الجماعية التي مورست في مجتمعات التوحيد عبر تاريخ الرسالات الالهية ٠

وأخيرا أعتذر من قارئي الكريم عما وجده في الكتاب من خلل أو

تقصير ، وعذري أني كتبته في أيام انشغالي بالدراسة ، فلم يحالفني التوفيق لكتابة موضوعاته دفعه واحده اللهمّ الّا الفصل الرابع منه حيث استطعت أن أوفّر له أياما معدوده من عطلة شهر رمضان المبارك .

وفي الختام نصلي على محمد وآله ونبتهل الى الله سبحانه وتعالى بأن يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات ، ويعاملنا بلطفه ورحمته الواسعة ويتقبل عملنا بقبول حسن .

والحمد لله ربّ العالمين

اهم مصادر الكتاب

كتب التفسير

تفسير الميزان	للسيد الطباطبائى
تفسير القمى	على بن ابراهيم القمى
تفسير العياشى	محمد العياشى
فى ظلال القرآن	للسيد قطب

كتب الاخلاق

المحجه البيضاء	للفيض الكاشانى
جامع السعادات	للشيخ النراقى
الحقائق	للفيض الكاشانى
الاربعين	للشيخ البهائى
ارشاد القلوب	للديلمى
منيه المريد	

كتب الفقه

تحرير الوسيله	للامام الخمينى
المكاسب	للشيخ الانصارى
جواهر الكلام	محمد النجفى

مسالك الافهام	للكاظمى
القواعد الفقهيه	للبجنوردى

كُتب الحَديث

مالا يحضره الفقيه	للشيخ الصدوق
الخصال	= =
عيون أخبار الرضا (ع)	= =
ثواب الاعمال وعقاب الاعمال	= =
بحار الانوار	للمجلسى
الوسائل	للحر العاملى
اصول الكافى	لثقه الاسلام الكلينى
أمالى الطوسى	لشيخ الطائفه
نهج البلاغه	لأمير المؤمنين (ع)
مصباح الشريعه	للامام الصادق (ع)

كُتبُ الادعيَه

الصحيفه السجاديه	للامام زين العابدين (ع)
مفاتيح الجنان	للشيخ عباس القمى
الاقبال	للعارف ابن طاووس

كُتبُ اللغة

أساس البلاغه	للزمخشرى
مفردات الالفاظ	للراغب الاصفهانى

المعجم الوسيط — مجمع اللغه العربيه

كتب التاريخ

الكامل فى التاريخ — لابن الاثير

مروج الذهب — للمسعودى

الكتب الفكرية

الاسلام ومنطق القوه — للسيد محمد حسين فضل الله

الاسلام ومتطلبات التغبير الاجتماعى — للسيد الطباطبائى

التكامل فى الاسلام — أحمد أمين

الصوم تربيه وهدايه — دار التوحيد

المعصيه والشقاء — = =

السنن التاريخيه — للسيد محمد باقر الصدر

الطفل بين الوراثه والتربيه — محمد تقى فلسفى

الفهرس

الاهداء	٣
المقدمه	٥
منهج البحث	١١
الفصل الأول : الذنوب، آثارها، أنواعها، أسباب وطرق علاجها .	١٧
ماهى الذنوب ؟	١٩
الأبعاد السلبيه للذنوب :	٢١
١ ـ أثر الذنوب على القلب	٢٤
٢ ـ اقتراف الذنوب ينسى العلم	٢٧
٣ ـ ارتكاب الذنوب يسلب الخشوع	٢٨
٤ ـ الذنوب تمنع استجابه الدعاء	٢٩
٥ ـ ارتكاب الذنوب يزيل النعم	٣٠
٦ ـ ارتكاب الذنوب ينزل البلاء	٣١
أنواع الذنوب	٣٥
التقسيم العقلى للذنوب	٣٥
التقسيم الشرعى للذنوب	٣٦

كبائر الذنوب ٣٨
قائمه فى بعض كبائر الذنوب ٤٧
صغائر الذنوب ٦٤
الذنب الصغير قد يصبح كبيرا ٦٦
اجتناب الكبائر مكفّر للصغائر ٧٢
شبهه واهيه ٧٤
أسباب الوقوع فى المعاصى ٧٥
كيف عالج الاسلام مشكله الذنوب ؟ ٧٨
أولا : الخطه الوقائيه ٧٩
ثانيا : الخطه العلاجيه ٨٠
الفصل الثانى : التوبه فى التشريع الاسلامى ٩١
التوبه لغه وشرعا ٩٣
الخطيئه والتوبه فى الاسلام ٩٥
متى يعتبر الانسان مذنبا ؟ ١٠٢
وجوب التوبه على المذنبين ١٠٥
وجوب التوبه على الجميع ١١١
دوافع التوبه ومقوماتها ١١٣
قبول توبه المذنبين ١١٦
قبول التوبه لطف الهى ١١٧
شروط قبول التوبه ١١٩

التائبون أمام القضاء الاسلامى : ١٢٦
الحاله الاولى ١٢٧
الحاله الثانيه ١٢٨
توبه المرتّد ١٣١
توبه المفسد فى الارض ١٣٢
حقوق الناس ١٣٧
الفصل الثالث : التوبه منهج تربوى ربانى ١٣٩
التوبه دعوه مفتوحه للمذنبين ١٤١
منزله التائبين عند الله تعالى ١٤٦
الأبعاد التربويه للتوبه ١٥٠
درجات التوبه ١٥٤
التوبه النصوح ١٥٦
معنى التوبه النصوح لغه وشرعا ١٥٨
الاسلام يحث على التوبه النصوح ١٦٠
التوبه النصوح وازدواج الشخصيه ١٦١
التوبه النصوح منهج تربوى كامل ١٦٤
الخطوه الاولى :التخطيط للتوبه ١٦٥
الخطوه الثانيه :اعلان التوبه ١٦٧
الخطوه الثالثه :تطبيق الخطط العمليه للتوبه ١٧٢
الخطوه الرابعه :المراقبه الذاتيه والمحاسبه اليوميه ١٨١

الفصل الرابع: المعصيه الجماعيه والتوبه الجماعيه

تمهيد ١٨٧

الفهم الاسلامى للمعصيه الجماعيه ١٨٩

أضرار المعصيه الجماعيه ١٩٢

علاج المعصيه الجماعيه ٢٠٣

التوبه الجماعيه ٢١٠

الطريق الأول ٢١٥

الطريق الثانى ٢١٧

توبه قوم يونس (ع) ٢٢٠

توبه قوم موسى (ع) ٢٢٥

توبه أهل الكوفه ٢٢٨

الأبعاد التربويه للتوبه الجماعيه ٢٣٤

طريقه التوبه الجماعيه ٢٣٧

أهم مصادر الكتاب ٢٤١

هذا الكتاب

أول دراسة اسلامية تتناول فكرة ((**الخطيئة والتوبة**)) بروح علمية وبطريقة تربوية واسلوب واضح ، خال من الجدل الكلامي والتجريدي العقيم ، الذي يثار عادة في مثل هذه البحوث الاخلاقية ·

وقد تميز الكتاب ـ بالاضافة الى ذلك ـ بخصائص فريدة وعديدة ، أهمها طرح الاخلاق في اطارها الشرعي ـ متبنيا فتاوى زعيم الامة الاسلامية الامام الخميني حفظه الله ـ خلافا لعلماء الاخلاق الذين غالبا مايطرحون الفكر الاخلاقي الاسلامي منفصلا عن الحكم الشرعي ·

لقد عرض الكتاب التوبة بطريقة منهجية ، استوعبت أكثر البحوث المهمة للموضوع ، وخاصة تلك التى أهملها علماء الاخلاق ، كالبحث عن (**موقف القضاء الاسلامي من المجرمين التائبين**) و (**كالبحث عن المنهج التربوي للتوبة النصوح**) و (**كموضوع المعصية الجماعية والتوبة الجماعية**) وغير ذلك من الموضوعات التي لم تذكر في كتب الاخلاق القديمة بسبب التزامها بالطريقة الوعظية في طرح الفكر الاخلاقي ، بعيدا عن المنهجية والموضوعية ···

•••••••••••••••••